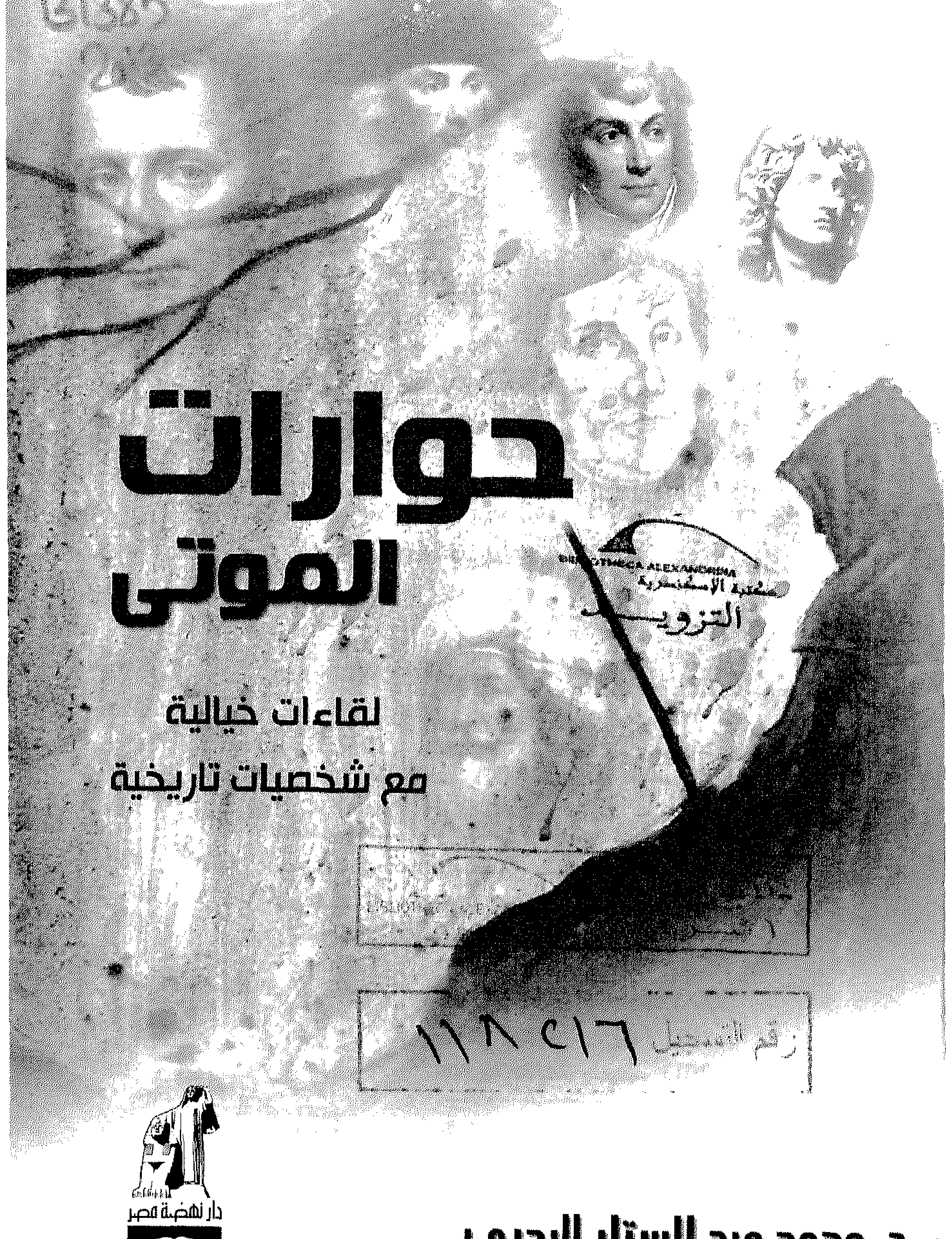


حوارات الموتى

لقاءات خيالية
مع شخصيات تاريخية

د. محمد عبد الستار البدري





حوارات الموتى

لقاءات خيالية مع شخصيات تاريخية

دار نهضة مصر للنشر

د. محمد عبد الستار البدري

العنوان:

حوارات الموتى

لقاءات خيالية مع شخصيات تاريخية

تأليف:

د. محمد عبد الستار البدري

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4506-5

رقم الإيداع: 8252 / 2012

الطبعة الثالثة: يناير 2013



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

إهداء

إلى روح أبي الذي أحبني واستثمر فيَّ صغيرًا

إلى أمي التي انكفأت على تربيتي يتيمًا ورعايتي كثيرًا

إلى أخت كفلتني ضعيفًا

إلى حمٍ شدَّ من أزري كبيرًا

إلى زوجة ليست لها شبيهة

إلى هَنَا ومصطفى وسليم .. ثلاثة أبناء جعلوني أبًا سعيدًا

إلى الفرارجي وأحمد ماهر وأساتذة آخرين جعلوني مستنيرًا

إليكم جميعًا أهديكم جزءًا من نتاج فكر

لشخص نسجتموه

محمد

شكر وتقدير وعرفان

هناك بعض من ساعدني على إنجاز هذا العمل، وهم مجموعة من شباب الدبلوماسيين الذين تزاملت معهم في القطاع العربي ومكتب المندوب الدائم للجامعة العربية بوزارة الخارجية، وأخص بالشكر الزميلَ الحسن سليمان الذي سهر كثيرًا ليراجع هذا النصَّ بالكامل وأضاف لي من فكره وعلمه، فضلًا عن أخي وزميلي وصديقي باسم سعيد عبده الذي راجع الكتاب، كما أتقدم بالشكر للزميل د. عبيدة الدندراوي، ولهم جميعًا أتوجه بالشكر...

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر لدار نهضة مصر للنشر على أسلوبها المتحضر، والذي يعكس مِهْنية وخُلقًا؛ وهما عنصران نحتاجهما جميعًا في المرحلة القادمة.

تقديم

جمال الغيطاني

إضافة..

إنها الكلمة التي تجسدت في وعيي بمجرد أن انتهيت من قراءة هذا السِّفْر الممتع، الخصب، المبتكر في مجاله. لماذا إضافة؟؛ لأنه يقدم شكلًا جديدًا للحوار، يمضي المؤلف إلى دروب التاريخ وتراتب الزمن ليتوقف عند عدد من الشخصيات التي لعبت أدوارًا استثنائية وفريدة، يتوقف ليحاورها.

هنا يقف على ناصيتي الإبداع وعدة فنون أخرى، الحوار والتاريخ والرؤى المختلفة، تأملت طويلًا الاحتشاد الذي بذله المؤلف حتى يحاور تلك الشخصيات ليتمثلها، هذا ما

نلاحظه في جميع الحوارات، الإلمام الدقيق، الكثيف بكافة ما يتعلق بالشخصيات التي عاشت في أزمنة مختلفة. إن إجراء حوار مع الخليفة معاوية بهذا العمق والثراء، والتفاصيل الدقيقة، أيضًا مع نابليون في منفاه بسانت هيلانة أو مارتن لوثر أو خالد بن الوليد أو محمد علي باشا أو الإسكندر.

يقتضي الحوار إلمامًا شاملًا لتمثل هذه الشخصيات والتعبير عن دخائلها وأيضًا العصر الخاص بهم، من تتبع الحوار نجد أنه لا يجري للتسلية أو لإبراز المفارقة بين إنسان قادم من عصر ليلتقي شخصية في الماضي، تمت إلى زمن آخر. وظروف أخرى، إنه يحاور انطلاقًا من قضايا تشغله، الموقف من قضية الخلافة عند معاوية على سبيل المثال. والصراع الذى مثل فتنة كبرى ماتزال فاعلة بين المسلمين، أيضًا دقائق الأدوار السياسية والعلاقة بين الفرد والتاريخ كما نجد في الحوار مع مترنيخ ونابليون ومحمد علي وغيرهم. وخلال التساؤلات والأجوبة لا ينسى المؤلف منطلقه فيسأل عما يتعلق بمصر الآن، مصر التي تمر بظروف فارقة، مغايرة، في بداية القرن الحادي والعشرين وبعد ثورة كبرى نادرة اضطربت بعدها الأمور، يحاول المؤلف أن يجد عند هذه الشخصيات إجابات للتساؤلات التي تشغله، لا يبدي رأيه في الشخصيات إلا من خلال

الحوارات الذكية الرهيفة، لقد كان العمل الإبداعي الرائع «أمام العرش» لنجيب محفوظ ماثلًا أثناء قراءة الصفحات الأولى من هذا الكتاب، لكنني سرعان ما وجدت نفسي أمضي في اتجاه مغاير، تتضافر فيه الصحافة بالأدب، البحث العلمي التاريخي بالإبداع، بالخيال الخلاق، الجميل.

من أندر الحوارات التي يضمها الكتاب والتي قرأتها في مساري الطويل ذلك الذى أجراه مع عام، مع سنة، ذهب المؤلف إلى القرون الوسطى ليحاور عام 1492 ميلاديًّا. العام الذي وصل فيه كريستوف كولمبس إلى أمريكا، والذي خرج فيه العرب من الأندلس، عام فاصل حاسم، الفكرة في حد ذاتها إبداع موحٍ وجميل، تحية للأديب محمد البدري الذى أبدع هذا العمل الجميل..

مقدمة

القارئ العزيز..

فكرة هذا الكتاب قد تكون غير تقليدية، وهي بالتأكيد ليست الأولى من نوعها، ولكنها بالنسبة لي كانت نتاجًا لتطور فكرة بدائية سيطرت عليّ وأنا في الثانيةَ عشرةَ من عمري عندما أعطاني والدي - رحمه الله - كتابًا جميلًا قرأته مِرارًا وتَكرارًا عن سيرة خالد بن الوليد، وقد تأثرت بهذه الشخصية تأثرًا عميقًا حتى صرْتُ أتخيل هذا الأسطورة وشكله وهيئته، وكنت على قناعة تامة بأن أول شيء سأطلبه عند دخولي الجنة بإذن الله تعالى هو أن أتحاور مع هذا البطل.. ومنذ هذه اللحظة بدأت الفكرة تداهمني كلما قرأت عن إحدى الشخصيات التاريخية التي أثرت فيَّ، فأُحضر الكتب عنها وأبدأ أستمتع بسيرتها، ولكن الفكرة تبلورت بشكل عملي لأول مرة خلال إحدى مقالاتي في بابي الأسبوعي في صحيفة الشرق الأوسط، وكان لهذا الأسلوب صدًى إيجابيٌّ للغاية عند القراء، وقد شجعني هذا لأستمرَّ في هذا النهج من

الحوارات المتخيلة مع الشخصيات التي تأثرت بها كثيرًا - وأعتقد أنها أثرت مباشرة في مسيرة البشرية ؛ لأقدم للقارئ بأسلوب حواري ما هو مفيد وشيق وفي الوقت نفسه قريبٌ للحقيقة قدر المستطاع، خاصة أن كثيرًا من هذه الشخصيات معقدة ومركبة وَفْقًا لرؤيتي، والتي ليست بأي حال من الأحوال قاطعة، ولكنها تأتي تفسيرًا لوقائعَ أو مقولاتٍ لهذه الشخصيات.

عزيزي القارئ لا أخفي عنك أننا تعلمنا التاريخ بشكل خاطئ، بشكل قاصر، ضعيف المضمون، لا يرقى إلى كونه مجرد سرد لأحداث في الماضي كان المطلوبَ منا حفظُها للحظة محددة في نهاية العام الدراسي نلفظها عند الامتحان، بنظرية «اكتب ما تعرفه عن...» وهو ما يمثل شكلًا غير مترابط أو متجانس بل امتهانًا للتاريخ.. لقد جردوا التاريخ من روحه ومغزاه، وهذه خطيئة حقيقية لأن التاريخ أعظم وأجمل من هذا؛ فهو وسيلة للفكر والتفكر، أداة للتعلم، والأهم من ذلك وسيلة للمتعة، فتاريخ الأمم مثل تاريخ الإنسان مكون من فصول وحلقات متصلة، مثل أي دراما معروفة أو حتى فيلم نشاهده أو كتاب نقرؤه، وهذا هو الخطأ الذي أسعى لتجنبه عندما أقوم بتدريس مادة التاريخ السياسي للطلبة في الجامعة، أو عندما أصوغُ بابي الأسبوعي «من التاريخ» في صحيفة الشرق الأوسط.

حقيقة الأمر أننا لسنا متعودين على تناول التاريخ بشكل حوارات لم تحدث اللهم إلا لو كنا نجهز لعمل درامي، ولكن هذا ليس عملًا

دراميًا، بل عملًا تاريخيًا وسياسيًا وسيكولوجيًا، ومحاولة لكشف خلفيات الشخصية من خلال قراءتي ورؤيتي لها، والتي تطورت مع الزمن والإدراك، وبالاستعانة ببعض كتب علم النفس التي قرأت فيها عن فهم الشخصيات وتركيباتها، بما ساعدني في تحليل وفهم جوانب الشخصيات بصفة عامة.

وانطلاقًا من هذا الإيمان العميق بالتاريخ، واقتناعًا بدوره في تشكيل الحاضر ومساهمته في صناعة المستقبل، فإنني وضعت سلسلة من الحوارات مع الشخصيات التي أرى أنها أثرت بشكل مباشر في صناعة التاريخ، بل إن الخيال قادني لأن أحاور كيانًا وضعيًا غيرَ إنساني ويتمثل في سنة ميلادية هي سنة 1492م؛ لما لها من أهمية خاصة أدت إلى تغيير مجرى التاريخ.

حقيقة الأمر أنني أعترف بأن مثل هذا العمل مبني على استشفافي للشخصية التي أحاورها من خلال كتب التاريخ أو مواقف محددة لها، كما أنني عمدت في كثير من الحوارات أن أسعى إلى إدخال بُعد التفاعل بين الحاضر والماضي من خلال رؤيتي كمحاور، والتي هي مبنية على عالمنا الذي نعيش فيه، ورؤية الشخص الذي أحاوره، كما سعيت أيضًا لتوضيح فروق الزمن وقياس الأيام لتكون وسيلة ترفيه وتفكر لي وللقارئ العزيز.

أخيرًا فإن عامل اللغة، خاصة مع الشخصيات الإسلامية، مثَّل لي مشكلة طفيفة سعيت للتغلب عليها من خلال السمو بلغتي العربية

وتبسيط لغة الذين أحاورهم، فأرجو من الله ألا أكون قد هبطتُ باللغة العربية أو حقرت من شأنها.

وفي الختام فإني أدعو المولى عز وجل أن يجعل من هذه الحوارات أداةً للتعبير عن فكرة صناعة التاريخ، وأن يجعلها أداة لصناعة الحاضر والمستقبل، كما أستميحه عذرًا في حالة إذا ما استشعر القارئ عدم موضوعية في بعض الجمل الواردة بهذه الحوارات، فلقد آثرت أن أكون موضوعيًّا فإن لم أستطع في بعض الأحيان فهذا لأنني إنسان ولي مشاعر ورأي، وهي عناصر حاولت تحييدها قدرَ المستطاع.

والله ولي التوفيق...

القاهرة

د. محمد عبد الستار البدري

معاوية بن أبي سفيان

معاويــــة بـــن أبـــي ســفـيــان

وقفت أتخيل الخليفة معاويةَ بنَ أبي سفيان في الجامع وهو جالس في مقصورته استعدادًا لصلاة الجُمُعة بالشام وسط رهط من القوم الذين يؤمنون به وبقدراته السياسية وحنكته، فترسانته السياسية تماثل أي قوة سياسية في عصرنا الحديث، وقد وقفت أتأمل هذا الرجل الذي نعتته بعض الكتب بالعظمة، ووصفه آخرون بالرغبة في الإمارة، وأنه تسبب في قتل الصحابي عمار بن ياسر الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: «تقتله الفئة الباغية»، ولكنه في الوقت نفسه القياديُّ المسلمُ الذي لعب دورًا محوريًّا في نشر الدين الإسلامي وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية.

وقفت أنظر إليه ومن خلفه ابنه يزيدُ بنُ معاوية يستعدانِ للصلاة؛ هذا الشاب الذي كثيرًا ما كان رمزًا للهزل والطمع، وهو ما جعله شخصًا مكروهًا، ولكن والده أراد له المُلْكَ إرثًا من بعده في خروج على قاعدة ترشيح خليفة وأخذ البيعة له على نهج الخلفاء الراشدين.. فها هو يزيد يقف خلف والده ينتظر اللحظة التي يتبوأ فيها مكانه، ولكنه ما كان ليسد جزءًا من قيمة والده ولا حنكته.

وقف معاوية يستعد لإقامة الصلاة في مقصورته التي لا تبعده كثيرًا عن جموع المصلينَ ولكنها تحميه من بطش معترض سبيل أو قاتل أجير بعدما مات اثنانِ من الخلفاء الراشدينَ أثناء أداء الصلاة، فها هو يقف بعزته المعروفة عنه. ولباسه القيم الذي ينمُّ عن منزلته العالية حتى قبل الخلافة، فهو بالفعل سليل والده عزيز مكة الذي أكرمه الله بعد أن فقد سلطانه بأن جعل بيته آمنًا يوم فتح مكة.

وعقب الانتهاء من الصلاة هرولتُ إلى معاويةَ فحجزني حارسانِ له بكل عنف، فقلت لهم باللغة العربية الفصحى: إني طالب الخليفة...، فعنفني الحارسانِ، فصرخت قائلًا: وما أدراك ما حوائجي يا أيها الخليفة؟! فالتفت معاوية وقال بصوت لا يخلو من الاستفسار: ما بالي لا أذكرك فأنا لا أنسى وجهًا رأيته، ولا أتناسى صوتًا سمعته، فقلت له: عابر سبيل، حاجتي ليست في مالك ولا ملكك.. إنما في حديثك، فرفقًا بمطلبي ورأفة بشوق العقل والفضول.

ابتسم معاوية ابتسامة وقال بهدوء: لسان عربي غير معهود لشخص غير مذكور، فما عساي أكون فاعلًا بك؟ فعاجلته بقولي: حديث قد لا ننساه وقد لا تطويه الذاكرة، فقال: أتريد الحديث معي يا أخا العرب؟ فقلتُ له بكل حماس والابتسامة تعلو وجهي: أجلْ والله أجلْ... حديث نعلم ونتعلم منه، فقال لي والفضول بدأ يتملك ملامح وجهه: وما لي بهذا الحديث؟، فقلت له على الفور: واجب لخليفة منصور، فقال بابتسامة ذكاء: لا واجب لك عندي ولا فرض، فقلت له بهدوء: وما استجابة الخليفة إلا واجبٌ للرعية، فقال لي: لو حدثتك فهل تعقد لي البيعة في صلاة الجمعة المقبلة؟

وقفت مترددًا في الحديث معه، فلقد عشت صباي أقرأ وأبكي على موت علي بنِ أبي طالب – كرم الله وجهه – وضياع حق الطاعة له، وقد نسب كثير من المؤرخين سبب ذلك لمعاوية، فهل أبايعه وأنا لا أعرف تمامًا ما حدث وقت الفتنة الكبرى ومع ذلك استجمعت شجاعتي وقلت له باحترام: «ولو حدث ذلك ماذا سيكون رد فعلكم؟».

وقف معاوية يرمقني بنظرات استغراب وبعض الإعجاب في الوقت الذي بدأ حرسه يبدي الضيق، فنهاهم معاوية وقال ضاحكًا: دعوه وشأنه. فشأنُهُ شأنُ كثيرين غيره؛ قهرهم لساني، وغرست فيهم سيف حيلتي، فاتركوه ينال قدره من سوط لساني، ثم استدار وقال: أحضروه أتحدث معه في القصر.

وهكذا دخلت – بعد التفتيش بطبيعة الحال – إلى القصر وأنا بصحبة داهية العرب معاوية بنِ أبي سفيان بن حرب، فأجلسني بجانبه وقال مداعبًا: «إن نظراتي لبها سحر الدهاء وما جلس غيرك مكانك إلا وفتنه فكري، واستمالته سياستي عن حق» فقلت له مقاطعًا: ليس كل اللاحقين مثل السابقين أيها الأمير. فأطلق معاوية ضحكة، وقال لحاجبه: آتنا بالأكل يا رجل فمثل هذا الكلام لا يطيب إلا مع خير ما رزقنا الله.

قلت له مقاطعًا: «الإذن لي بالحديث صراحة» فقال معاوية بابتسامة هادئة: «وهل سمعت عني غير الحلم والكرم؟!»...

انتهزت هذه المناسبة لأقول له صراحةً: وكيف يئول لك الملك وأنتم يا بني أمية على ما أنتم فيه؟

معاويـةُ مبتسـمًا بهـدوء: أفهـم القصد، فأنت تقصـد أننا دخلنا الإسـلام متأخرين مع «طلقاء مكة»... ولكننا أيضًا من أسياد القوم، وتأخرُ والدي في دخول الإسـلام ليس معناه القضاء على حقوقنا كمسلمين من قريش في تولي الإمارة، فنحن سـادة من أسـياد قريش من أمية بن قصي بن كلاب... راجع تاريخنا تعرف، فالإمارة ليست حديثة العهد بنا.

أنـا بانفعال: ولكـن بعض النـاس يعايرونك لما فعلتـه والدتك هند بنت عتبة فيما حدث مع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

معاويـة على غير راحـة ولكنه لم يفقد هدوءه: أنت تريـدني عنيفًا ولكنك لم تسـمع مقولتي الشـهيرة «ما من شيء ألذ عندي من غيظ أتجرعه».... لقد عـودت نفسي ألا أندفع وراء مسيء لي، ثـم انفجر ضاحكًا وقال: «نعم قالوا عني ابن آكلة الكبد» ولكنك لم تقل أيضًا «ابن ناصرة الإسلام في اليرموك؟» أو زوجـة «مـن دخل بيته فهـو آمن» (نسـبة إلى قول المصطفـى عليه الصلاة والسلام «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن»).

أدركـت عند هـذه اللحظة أننـي أمام عبقري السياسـة في عـصره بحق، فقلت له مباغتًا: وما مقوماتك للملك يا أيها الأمير؟

فرد معاوية بابتسـامة لا تفارقه: لقد قربني الله سـبحانه وتعالى منه بحب النبي عليه الصلاة والسلام لي، ولا تنس أنه كان زوج أختي!

أنا مترددًا: ولكن..

معاويـة مقاطعًا: أختي هي رملة بنت أبي سـفيان... هي «أم حبيبة» زوج

الرسـول عليه الصلاة والسـلام، وقد نشـأت دينيًّا في كنفه ونهلت من علمه وأخلاقـه عليـه الصـلاة والسـلام... ألم تعلم أنني كنت من كتبـة الوحي يا رجل؟!

أنا بلغة استـفزاز: ألسـتَ ممن قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا أشبع الله له بطنًا»؟

معاوية بضحكة عالية: وأنا ممن قيل فيهم: «كاد معاوية أن يُبعث رسولًا»، ثم استطرد قائلًا: كيف تصدق ما يقال هنا وهناك؟!

نظرت إليه وقلت: ولكن هذا لا يشفع في مآل الملك لك!

معاوية مبتسـمًا بهـدوء: ولِمَ لا فأنا رويت قرابة مائة وثلاثة وسـتين حديثًا عن الرسـول عليه الصلاة والسلام، كما أنني كاتب آية الكرسي، وممن شارك في غزوات الرسـول، وأنا مَنْ دعا له الرسـول عليه الصلاة والسـلام وقال: «اللهـم اجعلـه هاديًـا مهديًّـا واهْدِ بـه»، وهـذا حديث صـدق، وقد صدق الرسول عليه الصلاة والسلام.

نظـرت إليه نظرة جد وقلـت: هاديًا وأنت محاربٌ للإمـام علي زوج ابنته وأبي حفيدَيْهِ الحسن والحسين؟

معاويـة مقاطعًا بحـدة: توقف يا رجل إنما قاتلت ابـن أبي طالب لخلاف بيننـا على القصاص لعثمان، وأما الريحانتان (الحسـن والحسـين) فقد أكرمت منزلتهما في عام الجماعة عندما تلاقينا وبايعاني.

أنا مقاطعًا: ولكن الكل يعلم أن أباهما أحق بالخلافة منك!

معاويـة بحزم: قد يكون علي من حكماء الأمـة وأقربهم منزلة مني ولكنه ليس بالضرورة أفضل من يحكمها.

نظـرت إليه نظـرة لا تخلو من توتـر وقلت: وكيف ستواجه ذريتك ربها بعدما اقترفته مع سيد شباب أهل الجنة؟

نظـر معاويـة بتوتـر شـديد، وقـال بانزعـاج ملحـوظ لأول مرة: إن لسـانك ولباسك وباطنك يقول لي إنك لست منا...، وعند هذا الحد انتفض الرجل واقفًا ودخل الذعر قلبي وهو ينادي: زجوا به في السجن حتى نعرف من أرسله إلينا.

تمالكـت نفسي وقلت له بهدوء شـديد: هل عهدنا شـيمة بنـي أمية الغدر بعد الأمان؟

وبإشـارة من معاوية توقف الحراس عن ملاحقتي وتفرس هو في وجهي قائلًا: من أنت؟

أنا بهدوء: أنا لا أمثل لك شرًّا، فأنا خيالك كما أنت خيالي...

معاوية مستغربًا: لا أفهم.

أنا: لسـت من عالمك ولسـت من الجن، ولكني جئت من مسـتقبل بعيد لأنظر في تاريخ قريب لقلب كل مسـلم... أنا معك للحظات أفارقك بعدها بلا عودة... ولا أحمل معي إلا كلماتك من وحي خيالي.

معاويـة بأمارات الجد عـلى وجهه: لا أفهمك ولكنك شـوقتني... كيف تعرف ما اقترفه يزيد بن معاوية من بعدي؟

أنا: لأني أعرف مستقبلك من حاضري.

فقال لي بهدوء وكأن همًّا نزل عليه: اجلس يا رجل... اجلس وسْل ما شئت، والله إنه يحلو لي ترك مجلسك... ولكن فضولي أقوى من نزعتي هذه وأمر الله أقوى من هذا... ماذا تعرف عن يزيد؟

أنا: سيعيث في الأرض فسادًا، فهو لا يملك قدراتِك، وسوف يدفع ثمن ملكه في آخرته.

معاوية: كيف؟

أنا: هو قاتل الحسين قولًا واحدًا.

انتفض معاوية واقفًا بانفعال شديد وقال: أنا لم أقتل أباه ليقتل هو الابن... هذا ليس من السياسة في شيء... سيخسر الأحمق دينه ودنياه ومُلك أجداده.

أنا: نعم فهو زائل وبدم كثير فيما بعد.

معاوية: والله لقد سعيت منذ البداية ألا أريق الدماء في هذا الأمر... ثم بدأ يهدأ بعض الشيء وقال: ترى كيف سينظر إليَّ في زمانكم؟

أنا بابتسامة: كثير من الناس لا تنسى فعلتك مع علي - كرم الله وجهه - والجميع لا ينسون دم الحسين على أيدي رجال ابنك يزيد.

معاوية: دم الحسين بن علي... كيف أصبح هذا؟!

أنا: لقد قتل عمالُ يزيد الحسينَ بنَ علي في كربلاء وداسوا على جسده الطاهر وحزوا رأسه.

معاويـة مذهولًا: هذا كذب... لا يمكن ليزيد أن يفعل هذا... ثم جلس وكأن جبـلًا سـقط عليه مرة أخـرى، وبعدما تمالك نفسـه بعض الشيء قال: ومن روى هذا الكلام؟...

أنا: ستجده في كتب كثيرة منها الطبري وابن...

معاويـة مقاطعًـا بصـوت عالٍ: طـبري من طبرسـتان أم طبريـة... والله لأحرقنها....

أنا: أيها الأمـير؛ حرق المدن والصحف لا يحرق الذكرى العفنة ليزيد.

معاوية والهدوء يعود إليه مرة أخرى: لعن الله يزيد، فقد ابتلاني الله بحبه، كما ابتلاني بحب أمه «ميسون»...

أنا: لنعد إلى الخلف بعض الشيء... وما الذي رفع شـأنك بين المسـلمين وأنت من الطلقاء؟

معاوية مهمومًا ومنشـغل البال: والله لقد بدأها أخي يزيد بن أبي سفيان، والذي ولاه الصديق أبو بكر ﷺ أول جيش إسـلامي متوجه نحو الشـام... ثم قال ضاحكًا: وكأن الشام كُتبت لنا يا رجل.

أنا: هذا أخوك، فما شأنك أنت؟

معاوية ضاحكًا: بدايتي كانت في فتح قيسرية بتوجيه من عمر بن الخطاب فقد قدت جيش المسلمين هناك.

أنا: تقول بعض الكتب إنك أمرت بقتل مائة ألف قيسري خلال إمارتك؟

معاوية ضاحكًا: والله إن هذا الدم ليملأ نهرًا كاملًا... يا رجل ألم تعلم عني أنني لا أقتل إلا لشدة أو لهدف خدمة دين الله ... ما أنا بقاتل يا رجل؟!

أنا: ثم؟

معاوية: ولّاني عمر إمارة بجنوب سورية في العام السابع عشر الهجري، رحم الله الفاروق فلقد كان يرى فيَّ ما لا يراه غيره في وقته.

أنا: كيف؟

معاوية: لقد كان جالسًا ذات يوم وقال لمن حوله عندما رآني «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءَهما وعندكم معاوية»، كان الرجل يعرف ذلك عني.

أنا: هل صحيح أن والدتك...؟

معاوية مقاطعًا بضيق: تقصد زوجة عزيز مكة؟

أنا: ألم تقل فيك شيئًا كهذا؟

معاوية مبتسمًا: لقد كانت تحبني حبًا جمًّا وترى فيّ نفس ما رأى الفاروق عمر رحمهما الله... فذات يوم قال أحد عنى إنني سأسود قومي، فقالت أمي: «لا رفعه الله إن لم يَسُدْ إلا قومه»، فلقد كانت ترى في سيادتي للعرب وحدهم انتقاصًا من قدراتي.

أنا: كيف وليت ولايتك؟

معاوية ضاحكًا: وليت الشام واكتملت لي بعد ضم الأردن وفلسطين، فآل الشام كله لي خلال ولايتيْ عمرَ ومن بعده عثمان.

أنا: كيف لك هذا وأنت من الطلقاء؟

معاوية ضاحكًا: أنت تذكرني بمقولة والدي عزيز مكة أبي سفيان عندما كتب يوصيني بأن أراعي أنني تأخرت في دخول الإسلام فقلل هذا من شأني، فقال لي: «إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسول الله، وقصَّر بنا تأخرنا، فصاروا قادةً وسادةً وصرنا أتباعًا...» وقد كان والدي محقًّا يا رجل، ولكنه لم يدرك بعد أن صلاح العمل السياسي يدفعك للرفعة.

أنا: كيف؟

معاوية مبتسمًا: الرفعة يجب ألا تكون بالأقدمية أيًّا كانت، حتى ولو في دخول الإسلام، فلو أن هذا صحيح لكان يجب عدم تولية خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وقد أعلنا إسلامهما متأخرين، لقد اجتهدت مثلهما في مجال السياسة وفن الحكم، واستمالة القلوب بلساني أغلب الوقت، وبالسوط في مناسبات قليلة، باللين تارة والشدة تارة أخرى...

أنا باستفزاز: أتقصد بالدم والسيف؟

معاوية: إني لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم تكن إلا كلمة يشتفي بها مشتفٍ جعلتها تحت قدمي ودبر أذني (خلف أذني)؛ أي تجاهلتها.

أنا مبتسمًا: أنت شخص مُحير.

معاوية ضاحكًا: إني أرى فيك عداءً لي...

أنـا: لا يـا أيها الأمـير، ولكني أختلف مـع بعض ما نقل عـن أعمالك... فلـماذا لم تُعـزل في عهد عثمان؟ هل لأنك من بنـي عمومته، خاصة مع وجود من هو أولى منك؟

معاوية: لقد قال لي البعض نفس ما تقول فكان ردي عليهم على ما أذكر: أنه ليس في زماني أحد أقوى مما أنا فيه مني، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب، فلـو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر بن الخطاب هوادة، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل.

أنا: التغيير مطلوب في عصرنا... فلماذا لا تعتزل أنت؟

معاوية ضاحكًا: يا أيها الشـاب، إن الشـام تحبني... ألم تدرك ماذا فعلت فيها وبها؟

أنا: ماذا؟

معاوية: لقد بنيت بها أول أسـطول لسـفن الدولة الإسلامية، فأخرجتها من قوة برية إلى قوة بحْرية بما سـمح لنا أن نتوسـع من خلال البحر، ففرضنا السـلطان على الجزر المجاورة، وقد كان أمـير المؤمنين عمر ﷺ مترددًا في بناء الأسطول، ولكنني استطعت أن أنهي المسألة في مرحلة لاحقة...

أنا: ولكن هذا لا يكفل لك أن تكون واليًا مدى الحياة؟!

معاويـة ضاحكًا: لقد أمنت الحدود الشـمالية للدولة الإسـلامية بشـكل جعلها خارج نطاق الروم، فلقد رسخت النصر بكل ما أُوتيت من قـوة، كما

أنني جعلت من الشام ثمرة الولايات لا ينافسها إلا ولايات قليلة للغاية، وهو ما نال استحسان الرعية.

أنا: ولكن التغيير سنة الحياة.

معاوية مقاطعًا: الوضع صعب يا رجل... كيف تغير والدولة على شفا حفرة من الحرب بين بطونها... ثم إنني حاولت مع معشر العراق والأمصار أن أثنيهم عما هم ماضون فيه فنالوا مني نيلًا كبيرًا.

تفرست في الرجل فهو قوي الحجة لا يفصح عما في نفسه بسهولة فباغته بقولي: فلنأتِ أيها الأمير إلى الفتنة الكبرى.

معاوية مقاطعًا بابتسامة: ما بالي أسمع منك أمير وأمير، أولست أنا أمير كل المؤمنين كما أطلق عمر بن الخطاب هذا الاسم على من يجلس في سدة حكم المسلمين؟.. أولست أهلًا لها أيها الشاب؟

نظرت إلى معاوية مدركًا أنه بدأ يحاصرني بذكاء فقلت له: ليس لك في رقبتي بيعة يا أمير.

انفجر معاوية ضاحكًا وقال: أشعر كأني أحادث عمرو بن العاص... اصدقني القول، ما صناعتك؟

قلت له: أنا أعمل كدبلوماسي، أي أن ولاة الأمور أو الحكام في زمننا يرسلونني كسفارة إلى دول وممالك أخرى أقيم هناك لأرعى مصالح بلادي ورعاياها.

نظر إليَّ معاوية وهو مستغرق في التفكير وقال بعد صمت قليل: والله لو كان لنا حاجة بمثل هذه السفارة لجعلت لها ديوانًا كما جعلت للبريد والملاحة وغيرهما... ولكن من يدري ربما أفكر في ذلك...

قلت له: أولا تترك فكرة تمر أبدًا أيها الأمير؟

معاوية ضاحكًا: والذي نفسي بيده لو هربت فكرة من عقلي لعاقبت عظم الرأس عليها، فأنا لا أُخرج الأفكار إلا لأفعال حتى لا تهرب أو تُسرق مني، فلست مثلك، ثم انفجر ضاحكًا.

قلت له بحسم: الفتنة الكبرى... لماذا لم تساند عثمان بن عفان؟! أليس من بني عمومتك؟!

معاوية مقاطعًا: وكيف لا... فلقد ساندته، فأذكر أنني كنت في زيارة للمدينة في مطلع الفتنة الكبرى فقابلت رهطًا من الصحابة وحذرتهم، وأذكر قولي لهم: «أوصيكم بشيخي هذا خيرًا، فوالله لئن قُتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلًا ورجالًا...»، ولكنهم لم يتقوا الله في سنه ومقامه وهو المعروف بذي النورين لزواجه من ابنتي الرسول عليه الصلاة والسلام...

قلت له: لماذا لم تنصره إذن؟!...

معاوية بنوع من الغضب المحسوب: كنت في المدينة أثناء الفتنة فلقيت بعض الصحابة فقلت لهم على ما أذكر... إن بالشام مائة ألف فارس كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعُبْدانهم، ولا يعرفون عليًّا (علي ابن أبي طالب) وقرابته، ولا عمارًا وسابقته (عمار بن ياسر)، ولا الزبير وصحبته (الزبير بن

العوام)، ولا طلحة وهجرته (طلحة بن عبيد الله)، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله (عبد الرحمن بن عوف)، ولا يتقون سعدًا ودعوته (سعد ابن أبي وقاص)، فإياك يا عمار أن تقع في فتنة إن عُرف أولها فقد لا يُعرف آخرها.

أنا مقاطعًا: ولكنك لم تسانده بمائة ألف فارس؟

معاوية: سبق السيفُ العَذَلَ.

أنا بحدة: ولكنك لم تساهم في القضاء على نار الفتنة.

معاوية بابتسامة هادئة: ليس إلى هذا الحد فلقد نُفي بعض رجال الفتنة والمعارضون إليَّ بالشام وتحدثت معهم بوضوح؛ منهم الصعصاع وغيره... ولكنهم أبوا واستعصَوا...

أنا: ما رأيك في شيخك عثمان بن عفان ﷺ؟

معاوية بذكاء: رجل لين، للإسلام دَيْنٌ في رقبته.

أنا متسائلًا: كيف كنت ستتعامل مع مثيري الفتنة من أمثال عبدالله بن سبأ لو كنت خليفة؟

معاوية ضاحكًا: لم أكن خليفةً، ولكن دعني أعلمك حكمة الولاية أيها الشاب... فليس الاقتلاع بالدم والسيف وحدهما، فالعنف مطلوب والحلم مرفوع، واللين موقوت... أما سمعت مقولتي الشهيرة «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا سوطي حيث يكفيني لساني... لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها».

أنا: أنت بحق ذكي!

معاوية ضاحكًا: أسعى للتفوق على ابن العاص...

أنـا: «عـودة إلى الخليفة ذي النورين»، هل كان من المحبذ أن يُطبق عليهم حدود الله؟

معاوية: لو كنت خليفة؛ لكنت قد جهزت للكوفة جيشًـا يعرفون منه أن الحكم للخليفة وليس لهم، على أن يُطبق حد الحرابة على المنافقين والمفسدين في الأرض، فكان لابد أن يُصلِّب بعضهم ويعفو عن بعضهم، يُقرب بعضهم ويُبعد بعضهم....

أنـا ضاحكًا: إن قواعد زمن الديمقراطية الذي جئت منه كان سـيصعب عليها التعامل مع هذا الحدث.

معاوية ضاحكًا: «ديمقراطية» ما هذا اللفظ؟

أنـا: في زمني أيها الأمير تختار الرعية قيادتهـا بانتخاب حر مباشر، وهناك قوانـين تنظم العلاقـة بينهما وتضع حدودًا، فقد اسـتبدلنا العنـف بالقانون، والفتنة بالحوار وانتقال السلطة باختيار الرعية.

معاوية مبتسمًا: وكيف تصلح الرعية إذن؟

أنا مبتسمًا: بالحق والعدل وحكم القانون والسياسات السليمة.

معاوية ضاحكًا: السـياسي الناجح لكل زمان ومكان، والله لو كان الأمر بحاجة مني للحرية لمنحتها، أو للخطابة لقلتها، أو لقبول الإساءة لتجرعتها،

ألم أقل لك إنه ما من شيء ألذ عندي من غيظ أتجرعه؟! ولكن المهم هو أن تصلح الرعية.

أنا متسرعًا: أين قوتك... لماذا لم تحم الخلافة والشرعية؟

معاوية بهدوء يُحسد عليه: لقد قلت لعثمانَ - عليه رضوان الله - هذا الكلام... قلت له: تعالَ معي إلى الشام، فقال لي: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ.

أنا: ولماذا لم تحم الخلافة والخليفة؟

معاوية: وقد قلت لشيخي أحضر لك جند الشام حتى تواجه بهم الأمصار فقال لي: «لا،حتى لا أقتر على جيران رسول الله ﷺ».

أنا: وعند انتقال الخلافة للإمام علي -كرم الله وجهه- لماذا لم تطع ولي الأمر؟!

معاوية بهدوء شديد: وقد كنت على الطاعة حتى وفاة شيخي عثمان بن عفان مقتولًا، ألا تعلم ذلك؟

أنا: والإمام أصبح الخليفة من بعد عثمان رضي الله عنه ؟

معاوية: بيعتي له كبيعتك لي أيها الشاب!

أنا: هل معارضتك له كانت لنيته خلعك من ولاية الشام؟

معاوية: لا.

أنا: هل كنت تخشى أن يُبقي على الخلافة من بعده في بني هاشم؟

معاوية: أيها الرجل إن كل المرشحين للخلافة كانوا من العشرة المبشرين بالجنة... فماذا كان سيحدث بعد هلاكهم جميعًا أو بلوغهم من الكبر عتيًّا..؟ والله لسوف تتنازع بطون قريش الأمرَ، ولا تكون بالضرورة الغلبة لبني هاشم أو للأقدم في الإسلام.

أنا: إذن كنت تخشى من الإمام علي ــ كرم الله وجهه ــ ورجاله؟!

معاوية: الإمام علي رفض القصاص لعثمانَ وأنا وليه.

أنا: الآية واضحة والولي هو الخليفة.

معاوية: لي ما تأولت، ولك ما فهمت.

أنا: إن الجماعة كانت مع علي بن أبي طالب.

معاوية مقاطعًا: لقد كان معي الجيل الثاني من الصحابة... عبيد الله بن عمر، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ولا تنس عمرو بن العاص.

أنا: في صفين بدأت الحرب بينك وبين أمير المؤمنين... ماذا حدث؟

معاوية: اجتمع الجيشانِ في صفين بالقرب من الفرات، وتناجزنا لأسابيعَ طويلةٍ، حتى جاءت المعركة الفاصلة، فلم نستطع كسر قوم العراق، ولم يستطيعوا هم كسرنا، فرأينا القتلى من الجانبين، وخشينا أن يهلك بعضنا البعض فتسبي الروم نساءَنا وكسرى نساء العراق، ونعود للجاهلية والجزيرة بعد أن نصرنا الله سبحانه.

أنا: ولكن الروايات تقول إنك انكسرت وإن فكرة اللجوء للتحكيم

جـاءت من عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسـنة الرماح بعد أن قلت له: «هلكنا والله يا بن العاص».

معاوية ضاحكًا: لقد قالوا ما هو أكثر من ذلك في حقي، ونقلته لي عيوني في العراق، ومنها أني خفت مناجزته لأنه ما من رجل بارزه إلا هلك....

أنا: بالفعل قرأت كل هذا... أليس هذا صحيحًا؟!

معاوية متسائلًا: هل تمت كتابة كل هذه المسائل؟

أنا: إذن الأمر لم يكن هزيمة؟!

معاوية بذكاء: يلج النصر من الهزيمة والهزيمة من النصر يا رجل.

أنا: ولكنك كدت تهلك.

معاوية ضاحكًا: كلنا سنهلك.

أنا: كفى مراوغة أيها الأمير.

معاوية مقاطعًا: وهل منحتني البيعة أيها الشاب؟

أنا: قد أسـتخدم حقي في عدم منحها لك مثلما استخدمته أنت مع الإمام علي - كرم الله وجهه -.

معاوية: وأنا مع أبي الحسن (علي بن أبي طالب) نفس الشيء، فلقد رفضت منحه البيعة من الأساس حتى يقتص من قتلة عثمان وهو لم يفعل.

أنـا: ولكـن الإمام عليّ - كرم الله وجهه - لم يكـن بمقدرته القصاص... فـإن الأمـر عظيـم ومـا كان من الممكـن أن يقتـص منهم فتنتفـض الأمصار ونكون على شفا حرب مجددة.

معاوية مقاطعًا والابتسامة على وجهه: وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك في معركة الجمل ثم النهروان، وهذه هي الحرب وليس شفا الحرب.

أنا بحدة: ولكن هذه كانت في مرحلة تالية وكانت له القوة والمنعة ليتمكن من فعل ذلك.

معاوية: لكل امرئ ما نوى.

أنا مستفسرًا: هل ما فعلته كان ارتباطًا بفكر جاهلي لم تتخلص منه حتى لا تعود السلطة لبني هاشم وتكون الفرصة لبني أمية؟

معاوية ضاحكًا: لقد نهانا الله عن عادات الجاهلية.

قلت له مسرعًا: السؤال يا أمير.

معاوية ضاحكًا: إن قلت إني لا أحب بني عشيرتي فأنا لا أقول الحق... إن كنت فعلت هذا لإعادة السيادة لبني أمية فعلم الإجابة عند المولى عز وجل وهو خالق نفسي، ويعرف أنني أريد صلاح الأمة، ولكن لي حبي لعشيرتي وصحابتي وبني عمومتي أيضًا... أفلا تحب أولادك وبني عمومتك يا رجل؟

أنا مبتسمًا: نعم أحبهم ولكن ليس على حساب شرع الله والرعية. فعندنا مقولة قد تكون مفيدة وهي «من الحب ما قتل».

معاوية بسرعة بديهة يحسد عليها: «ومن الحب ما أحيا»، ثم استطرد ضاحكًا وقال: «لِمَ هذا التشاؤم وعمرك لم يقترب من الخمسين بعدُ؟ هل

أنتم أمة متشائمة في عصركم؟ بالله عليك قل لي من الخليفة في زمنك ومن أي ربوع قريش أتى؟».

أنا ضاحكًا: لقد أزيلت الخلافة بعدك بقرابة ألف وثلاثمائة عامٍ بعدما كانت في أيدي بني عثمان.

معاوية مقاطعًا والقلق على وجهه: بني عثمان بن عفان؟

أنا: لا بني عثمان من الأتراك، شمال سورية.

معاوية باهتمام: ومن أين أتَوْا وكيف خسر العرب سابقتهم وسلطانهم؟

أنا بابتسامة: هذه سنة الحياة الدنيا... خاصة إذا ما كانت النساء سببًا.

معاوية مبتسمًا: كيف بالله عليك؟ تكلم يا رجل.

أنا: أعتقد أن سببًا رئيسيًّا في سقوط الخلافة العباسية بعد قرون من الآن هو النساء... فلقد أدمت السبايا قوة ونضارة الدولة وخلفاءها بدسائس القصر ليتولى أبناؤهن الحكمَ وتكتب لهم العهود وتفرق لهم الأقوام.

معاوية ضاحكًا: أحذر المرأةَ وأثرها... ثم استطرد بذكاء وقال: هل قلت الدولة العباسية؟

أنا: نعم.

معاوية: تقصد بني العباس؟

أنا: نعم... فهم سيرثون دولتكم.

معاوية بانزعاج شديد: كيف هذا؟

أنا ضاحكًا: يلج العباسيون من الأمويين...

معاوية متجاهـلًا: ولذا فـإني كنت دائمًا أهيـب بأهل الخلافـة أن يراعوا العنصر العربي حتى تكون إسلامية عربية.

أنا: سيشـهد لك التاريخ أنك أول من أسـس لفكرة بقاء العنصر العربي، وهـو ما قد يعكس ظهور التيـار القومي العربي في الشـام قبيل انتقال خلافة بني العباس؛ فالنصر للقومية في النهاية أيها الأمير.

معاوية: أما آن الأوان لتستكمل عبارتك بلفظ «المؤمنين»؟

أنا متجاهلًا: لماذا لم ترسـل جيوشـك لنصرة إخوانـك المعارضين لولاية الإمام علي إبان معركة الجمل؟

معاوية بذكاء: منهم من بايع وأخلف، أما أنا فلم أبايع وبقيت على عهدي بالشام.

أنا: ولكنك تركتهـم يهلكون...

معاوية: كلٌّ يحارب لما في نفسه...

أنا: وماذا كان في نفسك أنت أيها الأمير؟

معاوية مبتسـمًا بهـدوء تام: كان في نفسي أن يُقتـص للخليفة المقتول ليس إلا، وعندما رفض ابن أبي طالب حاربته عليه.

أنا: هل كنت تخشـى العراق ولهذا وليت الطاغية زياد بن أبيه على الكوفة ومدن العراق؟

معاوية ضاحكًا: هو أخي يا رجل...

أنـا: ولكنـه كان الملقب بزياد بن أبيه حتى كانت لدولتكم حاجة به، وهو ما دفعك لتوليته على رقاب الناس والاعتراف بأخوته.

معاوية مبتسمًا: مهلًا يا رجل... زياد أبلى بلاءً حسنًا.

أنـا: أليس هو الرجل الذي فرض حظـر التجوال في العراق حماية للملك من الفتن؟

معاوية ضاحكًا: وهو لم يفعل هذا إلا للدفاع عن الحق.

أنـا: أليـس هو من أمر بضرب عنق رجل كسر حظر التجوال لأنه نام ولما سـأله شرح له الرجل ما حدث فقال له سفاحُك: «إنك لصادق ولكني أرى في قتلك إصلاحًا للرعية».

معاويـة ضاحكًا: إصلاح الرعيـة ليس بالأمر الهين، ولكن لا تصدق كل ما تقرأ.

أنـا: والله ما كان ابن أبي طالب ليفعل هذا... فهو كان سـيعزله على وجه السرعة.

معاوية ضاحكًا: لا يوجد رجل بلا خطيئة، وخير الخطائين التوابون.

أنا: ولكن الأبرياء أُريقت دماؤهم!

معاوية: لا تنس أن الشدائد جاءت للإسلام من أهل العراق فلقد نشروا الفتن في الأرض.

أنا: سيأتي من بعدك من قال فيهم الشيء نفسه وأنهم أهل فتنة وشقاء.

معاويـة: انظـر لمـا فعلـوه مـع ابـن أبي طالب كـرم الله وجهـه... نصروه ليخذلوه، أحبوه ليلفظوه، قربوه ليبعدوه... فما لهم إلا السيف والشدائد.

أنا: إذن وقفــت متفرجًا أثنــاء معركـة الجمــل، فلمــاذا لم تنصر...

معاوية مقاطعًا بصرامة: هذه ليست معركتي... كما قلت لك.

أنا: ولكنك فعلت هذا كي تخرج أنت لتواجه المنتصر فيضعف كل طرف الآخر وتفوز أنت في النهاية.

معاوية ضاحكًا: فعلت ما فعلت فقل ما شئت...

أنا: هل كان هذا هدفك؟

معاوية: أنا لا أخوض إلا معاركي.

أنا: إنك لشديد الذكاء أيها الأمير.

معاوية ضاحكًا: أسعى للتفوق على نفسي... هل لي في بيعتك؟

أنا: ما انتهى الحديث بعد...

نظر إليَّ معاوية، ومد يده وأخرج هدية وقال لي: «هذه لك».

قلت له: هدية لا حق لي فيها.

معاوية: بل لك كل الحق... فأنت علمتني اليوم شيئًا.

أنا: أنا لا أمثل لكم شيئًا حتى تعطيني هذه الهدية.

معاوية ضاحكًا: أو لن تكتب حوارنا هذا يا رجل في زمنك؟!

أنـا: لا أفهـم يا أمـير... أنا على مبعدة منك بنحو ألـف وأربعمائة عام، فما حاجتك بي؟

معاويـة ضـاحكًا: إنك لم تتعلم مني كل شيء أيها الشـاب... فلو سـميت ابنـك معاويةَ لكان هذا إضافة... ولو كتبت ما سـمعت فهو تعظيم لسـيرتي التي يعلم الله أنها صدق... ولو قلت ما سمعت فهو نصر لنا.

أنا: ولكنني لم أحسم أمري فيك يا أمير.

معاوية بابتسامة: قل سياسي عصره.. وقى أمته شر الفتن.

أنا: تقول بعض الكتب إنك قد تكون سببًا فيها.

معاوية ضاحكًا: لقد آن أوان العصر، فهل أنت مُصَلٍّ خلفي؟

نظـرت إليه نظرة مطولة، وأدركت أن اللحظة الحاسـمة أتت، فقلت له: سألتني البيعة، فمنعتها، والآن أمنعها مرة أخرى... إن هواي مع الإمام علي - كرم الله وجهه - وعقلي مع ذكائك وحكمك، وقضاء الله غالـب يا أمير.

معاويـة مقاطعًا: هـل على مـر العصـور مـن جمـع الاثنيـن يا رجل؟

أنـا: قليل من الساسـة... قليلون جـدًّا يكادون يختفون مـن الذاكرة من فرط قلتهم....

معاوية: أهلًا بك في عالم السياسة يا رجل... ثم قال بدعابة سياسية: «هل لك في بيعة يزيد؟».

أنا ضاحكًا: لولا خوفي بطش رجالك لقلت «لعنة الله على يزيد».

معاوية بهدوء: لا يهمني رأيك.

أنـا: مـا لي سـلطان عليك وأنـت في مخيلتي أيهـا الأمير، ولكـن هل لي في حكمة أنقلها إليك.

معاوية باهتمام بالغ: ما هي؟

أنا ضاحكًا: إن أي أمة لا تحسم مبادئ شرعية حكمها ليس لها إلا الهلاك مهما طال زخم انتصاراتها... وعندنا الشرعية في مفهومنا هي الدستور المتفق عليه بين أبناء الأمة حول وسيلة حكمها ومبادئها.

معاويـة ضاحـكًا: والله مـا عارضت شرع الله ولا سـيرة رسـوله ﷺ فيما فعلـت، ولكني لا أعلم عن مبادئ وضعها المولى عز وجل أو ثبتها الرسـول عليه الصلاة والسلام قالت لي إن البيعة ليزيد حرام، أو إن ملكي حرامٌ....

أنا: لن ينصفك كل المؤرخين يا أيها الأمير؟

معاوية بذكاء شديد: احكم أنت لي.

أنا: والله إني أشـهد لك بالذكاء والفكر في عمل السياسـة، وهي شـهادة حق لما رأيت منك اليوم.

معاوية ضاحكًا: هل لي أن تسمي ابنك معاوية؟

أنا: ولداي أسميتهما سليم ومصطفى، وابن أختي سُمي عليًّا.

معاوية مستديرًا لأداء الصلاة: لك ما شئت .

وعند هذا الحد سمعته يرفع صوته بقوله: «واهم.. وحَدَثٌ (قليل الخبرة) ستعلمه الأيام».

أنا بصوت أعلى: بل علمتني الأيام أن أثق في الله وفي الرعية.

معاويـة متوجهًـا بعيـدًا عنـي: سـأدعو الله لـك بالهدايـة السياسـية... أستودعك الله.

أنـا: سـأدعو أنا لنفسي بدعوة جديدة أقـول فيها... «اللهـم ألهمني علم وتقوى وشـجاعة الإمـام علي بن أبي طالب في خدمة الإسـلام، وحصِّني في دنياي بمواهب معاوية وذكائه وإنجازه للإسلام، وهبْ لي من لدنك وسيلة التوفيق بينهما».

مارتن لوثر



مارتــن لوثــر

كان اليـوم هـو الواحـد والثلاثـين مـن شـهر أكتوبـر أمـام كنيسـة «كل القديسـين» في مدينـة «ويتنـبرج» بألمانيا، وهو اليوم الـذي وضعت فيه بذور تغيير أوروبا، فهو اليوم الذي احتج فيه الراهب «مارتن لوثر» على ممارسات الكنيسـة الكاثوليكية، ولم يكن الراهب الشاب يعرف يومئذ أنه بهذه الخطوة سيكسر السلطان المطلق للبابا في روما ويفتح المجال أمام المسيحيين للتعرف على دينهم بعيدًا عن سطوة البابا وكنيسته ورجال دينه، كما أن إليه تنسب بداية موجة الحركات البروتسـتانتية في الديانة المسـيحية؛ وهو ما ساهم مباشرة في فتح المجال أمام إطلاق الإبداع والحريات وتطوير الحقوق العامة للشـعوب الأوروبية مما أسـفر فيما بعد عن تدشـين المفاهيم العالمية للحقوق السياسـية والاقتصادية والاجتماعية إلخ...

وقـد كان هـذا لقاءً مرتقبًـا لي انتظرته كثـيرًا، وقد حدث في خيالي مسـاء يوم السـابع عشر من فبراير 1546م في مدينة «إيزليبن» مسـقط رأسه حيث دخلـت عليه وهـو على فراش الموت بعد أن بدأ يشـعر ببعـض التعب عقب مفاوضـات مضنية، وقد طلب الرجل من كل الحاضرين الخروج من حجرة

نومه التي دفأتها أخشاب الراين الألمانية وأنارتها شموع القرون الوسطى من نجف تدلى ومصباحين بجوار الرجل ينيران ليلته الأخيرة في هذه الدنيا، تمامًا كما أنار قلوب العالم من بعد ظلمات...

وبعد لحظات تأمل في الرجل وهيئته ومشاهدة وجهه المجهد، أدركت على الفور علامات الصمود والشموخ الألماني واضحة تمام الوضوح... وقال لي بصوت خافت ضعيف: «إن مظهرك يشير إلى أنك لست من هنا أو حتى من هذا العالم».

نظرت إليه بابتسامة حانية وقلت له: إن كان الجميع يعرفون تعاليمك فأنا وحدي أعرف مستقبل دعوتك... كما أني أعرف من الكتب ماذا فعلت، وكيف ستتأثر البشرية بكتاباتك وتعاليمك.

لوثر بصوت يملؤه الفضول والاستغراب: كيف عرفت هذا؟

أنا: المستقبل قد يكون في الماضي يا سيدي الفاضل.... وأنا هنا لأن البلايين يريدون أن يعرفوا فكرك وأسلوبك وأهدافك، كما تريد التعرف إلى الشخص الذي غير هذا العالم.

لوثر مستغربًا: أنا!! غيرت العالم!! كيف؟

أنا: إن دعوتك كسرت احتكار الكنيسة الكاثوليكية بلا عودة... فاليوم في القرن الواحد والعشرين هي لا تملك من السلطان السياسي إلا قليله... البابا لا يستطيع أن يقضي على مستقبل الناس أو يقوم رجاله بحرقهم وتعذيبهم ليقولوا قوله... كما أن نفوذه السياسي تقلص، اللهم إلا بقايا الأثر الروحي

في السياسة، كما أنه أقدم على الاعترافات ونشر الاعتذارات... وأنت السبب في كل ذلك!

لوثر ينظر إلى أعلى براحة نفسية: حمدًا لله أنني أتممت رسالتي التنويرية... أنا لم أقصد أن أبدأ حركة تدمير للكنيسة تنتهي بعشرات الفرق المنشقة عنها... لا.. لقد أردت أن أُبَسِّطَ الأمور للناس لتعرف أن الطريق إلى الله لا يمر بالإنسان أيًا كان... فهذه علاقة الإنسان بخالقه ولم يكن الهدف منها السياسة.

أنا: ولكن الدين والسياسة كثيرًا ما يصبحانِ وجهين لعملة واحدة.

لوثر مستنكرًا: ماذا تريد مني؟

أنا: الحقيقة للقارئ المتعطش لمعرفة كيف غيرت مسار البشرية.

لوثر: سأجيب بقدر استطاعتي، ولكن لتعرف.. إنني أعاني آلامًا في الصدر أظن أنها ستودي بحياتي...

أنا بابتسامة باهتة: إنا لله وإنا إليه راجعون...

مارتن: لقد أتيت إليَّ اليوم؛ لأنك تعرف أني سأموت الليلة وأنت تريدني أن أعترف.

أنا: ...اعترافك اليوم ليس لربك، فأنا لست قسًّا.

لوثر: وأنا لا أحتاج لقس لأن علاقتي بربي مباشرة ولست في حاجة لوسيط كنسي!

أنا: هذا مربط الفرس... لماذا كسرت الكنيسة الكاثوليكية؟

لوثر: أنـا لم أكسر الكنيسة... والبابا هو الذي كسر نفسه وكنيسته.

أنا: لماذا سلكت هذا الطريق؟

لوثر مبتسـماً والتعب يحاصره: أنا بدأت الدعـوة لأني كنت خائفًا... نعم كنت خائفًا على روحي من النار والعذاب والقمع ....

أنا منزعجًا: أنت الذي تقول هذا؟

لوثـر: لا تسـئ فهمي... لقد كانت الكنيسـة الكاثوليكية دائماً ما تسـعى لخلق الخوف فينا علماً بأن الله محبة ورحمة... ولو لم «تتناول» ستموت وتحرق في جهنم... لو لم ترض عنك الكنيسة فأبشر بالعذاب... لو لو لو لو ... كلها آلام على كاهلي... وكنت صغيرًا.

أنا: وماذا غيرك؟

لوثر: عرفت أن الطريق إلى الله هو المحبة والثقة في الله ويسـوع... وليس بالحرق والقمع الكنسي يا أخي... .

أنا: كيف؟!

لوثر مستنكرًا بعض الشيء: أنت لا تفهمني جيدًا... هل أنت مسيحي؟... لا أظن!

أنا: لا.... لسـت مسيحيًا ولكني على استعداد للتعلم من معتنق أي دين أو ملة... سيدي أنا مسلم وأؤمن بنفس ما تقوله...

لوثـر منتفضًا: أيها الهمجي ما كنت لأكلمك لو عرفت ذلك، جيوشكم الهمجيـة كانت تحاصـر فيينا منذ خمسـة عشـر عامًا وأنـت تتحـدث معي، أنتـم قتـلة الحجاج المسيحيين في الأرض الطاهرة يا حقير.

أنا بحدة: غـير حقيقي... ولا صحة لما تقول... هذه كانت أكاذيب البابا ورجالـه... خاصـة البابا أوربان الثاني والذي بسـببه مـات مئات الآلاف في الحمـلات الصليبيـة، والتاريخ أثبت أن الحمـلات الصليبية كان الهدف منها سياسيًّا وليس دينيًّا، وما الحروب التي تشير إليها إلا توسعات دول ومصالح مثلها مثل الخلافات والحروب بين الدول الأوروبية.

لوثر ينهال عليه السعال والتوتر....

أنا: لا تنزعج يا سـيدي... فأنا من أساس ديني ينطلق وَفْقًا للآية القرآنية التي تقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، أنا لست قاتلًا، ألم أقل لك إن السياسة والدين يختلطان في بعض الأحيان؟!

لوثر وعليه أَمَارَاتُ القلق: وهل تأثر المسلمون بتعاليمي؟

أنا: لا شك في ذلك، وعلى الرغم من أننا لسنا من معتنقي المسيحية، لكننا جميعًـا تأثرنا، فلقـد أدت حركة الإصلاح الديني التـي قمت بها إلى تغييرات واسـعة في مفهـوم الحرية حتى أتـى اليوم الـذي أصبحت الدنيا تسـمح فيه بمفاهيم الديمقراطية واختيار الحاكم.

لوثر مستغربًا: أنا؟ هذا غير منطقي... أنا لم أطالـب باختيار الحاكم!

أنا: إذن لماذا بدأت حركتك؟... ما أسبابك الحقيقية؟

لوثر متنهدًا: أنا بدأت حركتي لإيماني العميق بأن الإنسان يجب أن تكون علاقته بربـه مباشرة، فهو صاحب الرحمة وصاحب الملكوت، على الإنسـان أن ينـدم ويتـوب، ولله الغفران دون اللجوء لكهنة أو رجال الكنيسـة... هو وحده القادر على ذلك.

أنا: هل هذا كان السبب؟

لوثـر بنظرة ذكية يبتسـم ويقـول: لقد كنت أخاف الله... كنت أخشـاه.. لقد خفت... الخوف كان السـبب... الخوف السـبب... كنت خائفًا، ولكن الشـكوك كانـت عندي كثـيرة... كيف يتحـول إله الرحمـة إلى مصدر خوف لي؟! هل يمكن أن تفسر لي هذا؟!

أنا: نعم أستطيع.

لوثر: لا تستطيع في حقيقة الأمر.

أنا: وما أدراك؟

لوثـر مبتسـمًا: لأنك تحفـظ آيات قرآنـك وإيمانك بربك واضـح... فمن صـدق إيمانـه يحب ربه قبل أن يخشـاه، أنت تخشـاه... فهل تحبـه؟، لو أحببته فلن يكون الخوف أساس العلاقة، بل لا مجال له، فالحب يستبدل بالخوف... أمـا لو لم تكن تحب الله فسـتعيش حالة الرعب التي عشـتها... عند هذا الحد أدركت أن إيماني منقوص... ليس كاملاً....

أنا: فماذا فعلت؟

لوثـر: أدركـت أن إيـماني في حاجـة إلى تطويـر، ولكن كيف لي هـذا وأنا لا أسـتطيع حتـى أن أقـرأ الإنجيل ناهيـك عن العهـد القديم؟ فهـو باللغة اللاتينيـة... سـطوة الكنيسـة أصرت عـلى جعلـه هكـذا حتى يكـون رجال الكنيسة وحدهم أهل الحكمة وأصحاب الأمر والنهي فيه...

ثـم ابتسـم وهو يعتدل فوق وسـادته، وقال بقوة وصلابـة جأش: أنا من ترجم الإنجيل للألمانية حتى يسـتطيع المواطن أن يقرأ عظمة الرب بنفسه... أنا صاحب هذا التغيير.

أنـا: أنـت كنت طالب قانـون وتخرجت كرجـل قانون وقـارئ في الفكر والثقافة.. فلماذا تحولت للطريق الكنسي؟

لوثر ضاحكًا: ألم أقل لك إنني كنت خائفًا؟!... نعم لقد كنت خائفًا وأنا عائد في إحـدى الليالي عندمـا داهمتني العاصفة، فبكيت ووهبـت نفسي لله لو أنه نجاني من هذه العاصفة... فسـأصبح راهبًا أوجوسـتينيًّا، ... الخوف يا عزيزي... ولكن الحق أقول لك، فأنا لم أهو القانون.. ودخلته لأن والدي فرض عليَّ ذلك... .

أنا: وماذا حدث بعد أن انخرطت في السلك الكنسي؟

لوثر: لقد عكفت على التأمل فيما نحن فيه... وهذا دفعني للتشكك، فكانت صدمتـي الكـبرى في فكرة أنك تسـتطيع شراء الغفران من خلال الكنيسـة... لقد كان عندنا كلب من كلاب البابا في ألمانيا اسـمه «جون تتزل» فكان يذهب للنـاس ليأخـذ أموالهم تحت حجة أنك تسـتطيع شراء الغفـران في دنياك لأي ذنب تقترفه أو ستقترفه أنت أو أقاربك أو أي شخص... حتى الميت!

اعتدل لوثر في جلسته وقال لي باستنكار بالغ: هل هذا معقول؟!.. أبيع للناس غفران الإله؟ أنا كبشر كيف أستطيع أن أدخل في نية وقدرة الخالق؟ إن البابا في روما يدعي أنه ظل الله في الأرض فكان يأخذ من دم «الغلابة» والمساكين ليصرف على بناء كنيسته ومستلزمات رجاله!

أنا مستفزًّا: والله ميدان الفاتيكان في زمني شيء فاخر ويليق حقًّا بالكنيسة الكاثوليكية؟

لوثر: كفى هزلًا وإلا فانصرف.

أنا: لقد كتبتَ في الرسالة السادسة من رسائلك المعلقة على الكنيسة جملة جميلة هي «فقط الإله يمكن أن يغفر، البابا وظيفته أن يؤكد للرعية أن الله سيفعل ذلك».

لوثر: وهل قرأت رسائلي الخمس والتسعين؟

أنا: نعم... كلها بلا استثناء.

لوثر: وما رأيك فيها كمسلم؟

ابتسمت وقلت له: إن نظرتنا لقدرات الإله واحدة... قد نختلف في تعريف طبيعته... وإن كنا لا نختلف على قدراته، ولكن دعنا من هذا الأمر... الأهم هو أن صفات المولى عز وجل واحدة، ومن بينها القوة وأن قوته ذاته، بما أن لديه القوة الكاملة فله سبحانه القدرة على المغفرة والرحمة، وهو دائمًا في قرآننا يبدأ السور بلفظ الرحمن الرحيم، والرحمة تشمل المغفرة ولا تحتاج عندنا لوسيط.

لوثـر بكل حمـاس: تمامًا مثـل كنيسـتي... إن البابـا لا يملـك الغفران.. هـذه ليسـت وظيفتـه... وبالتالي لا يسـتطيع أن يبيعه لأحـد، فمن لا يملك لا يمنـح!!! لقـد كان مبعوثه «تتـزل» يقول جملته الشـهيرة: «بمجرد أن ترن العملـة في الطبق، فسـتنتفض روحك من السـعادة إلى بارئها»، هل تصدق؟ أبيـع المغفرة في صكوك؟ هـذه سرقة... نصب... احتيال، وهـذا أقذر أنواع النصـب والسرقـة وأحطها؛ لأنه يعتمد على اسـتغلال إيمانـك، فأنا أسرقك من خلال إيمانك!... لقد قلت في الرسـالة التاسعةَ عشرةَ «إنه لا يوجد دليل على أن الإنسـان خالٍ من الذنب» لا عندي ولا عند البابا يا عزيزي... كفى استهزاءً بالبشر واستغلالًا لمشاعرهم.....

أنا: كيف بدأ الصدام؟

لوثـر: أنا لم أقصـد الصدام، فأنـا كنت أدرس في الجامعـة وعندما حدث هذا الهزل أرسلت رسائلي إلى الكاردينال المعني... فلم يعتنِ أحد بالرد عليَّ، خاصـة أن كتابي كان منطقيًا ومكتوبًا بفكر مرتـب، وعندما تجاهلوني لم أجد بُدًّا من قيامي بواجبي المقدس تجاه الخالق احترامًا للنفس والغير...

أنا: فتحديت الكنيسة علنًا وجهرًا؟

لوثر منفعلًا: هذه طريقتي يا أخي... لا أقبل اللوم في الحق خاصة إذا كان يقصد به ربي، فلقد ذهبت إلى كنيسة «فيتنبرج» وعلقت بها ما عرف بالخمس والتسعين رسالة، أنتقد فيها بيع الصكوك من واقع تعاليم الإنجيل...

أنا: ولكنك كنت عنيفًا؟

لوثر: هذه طريقتي... أنا كنت وحدي منعزلًا، ولكن المنطق والدين كانا السندين اللذينِ ارتكنت إليهما...، لقد أوضحت لك مغزى رسالتي وأنت قرأتها....

أنا: وماذا حدث؟

لوثر ضاحكًا: انهالوا عليَّ من كل اتجاه ومن كل شخص... تعاملوا معي كما لو كنت أبرص لا مكان لي في هذه الدنيا... ولكنني كنت سليط اللسان وقوي الشكيمة والعزيمة... فحاربتهم بكل ما أوتيت من قوة.

أنا: كيف حاربتهم؟

لوثر ضاحكًا: حتى يمكنَ لك أن تتفهمَ ما ناديتُ به، لابد أن تعرف ما يمكن أن نسميه بفلسفة الإيمان؛ أي أن ركن «الإيمان» هو أساس كل شيء، فبالإيمان بالمسيح والله ستنال الخلاص والغفران وكل شيء.. الإيمان هو كل شيء، أما الكنيسة فهي تعتبره مهمًا ولكن نظرًا لأنها تريد أن يكون لها دورها، فلابد أن ينال ذلك من أهمية الإيمان... أفهمتَ...؟

أنا: وماذا في ذلك؟

لوثر مستغربًا: إذا كان الإيمان هو كل شيء فهذا انتقاص من سلطة البابا في روما! فلا صكوك غفران ولا دور لها أصلًا في الغفران، كما أن هذا سيترتب عليه أن تتعامل الكنيسة مع رعاياها على أنهم مستقلون، وهو أمر غير مطلوب من وجهة نظرهم... هل فهمتَ؟ من القضية الأولى ستتقلص السلطة تِلْوَ الأخرى للكنيسة، وهو ما حاربوه.

أنا مبتسمًا: فهمت...

لوثر ضاحكًا: حمدًا لله بالذات لأنك مسلم...

أنا: كيف بدأت محاكماتك؟

لوثر ضاحكًا: لقد أرسلوا إليَّ في البداية بعض فلاسفة روما... ولكني رفضت التراجع عن معتقداتي يا سيدي... ومع ذلك أرسل الله لي من ساندني كثيرًا وهو الأمير السياسي للمقاطعة الكبرى واسمه «الأمير فريدريك»... وهذا الرجل بدأ يحميني فتدخل لدى السلك الكنسي وطالب بعقد ما شابه المجمع في «أوجسبورج» للاستماع لي، وقد قلت ما أؤمن به، وهو أن الكنيسة لم تكن جزءًا من تعاليم الإنجيل...، ثم أكدت بعد ذلك أن تعاليم الرب لا تعطي بالضرورة حق التفسير والقطع في الدين للبابا أو للكنيسة...

أنا: أنت جريء... ألم تخف أن تنال حدَّ الهرطقة وهو الإحراق حيًّا كما حدث للكثيرين من قبلك؟

لوثر ضاحكًا: هل تعرف ماذا فعل الأخ في روما؟... لقد عزلني دينيًّا، هل تعرف معنى هذا؟...

أنا: أهدر دمك؟

لوثر: أكثر من ذلك يا عزيزي... أكثر... لقد أصبحت خارج الكنيسة لا يكلمني أحد أو يتعامل معي... ثم انفجر الرجل من الضحك رغم صحته المتهاوية وقال: لقد عزلني فكسرته...، حاصرني فخنقته...

أنا: ولكن كيف حدث ذلك؟

لوثر: لقد ازددت تصميماً على ما أنا مؤمن به...لقد عملوا لي مجمعًا في مدينة «فورمز» رأسه الإمبراطور ذاته... وبعدما طلبوا مني التراجع... بت ليلتي خائفًا ولكنني كنت واثقًا من نصر الله... وفي اليوم التالي رفضت التراجع عن آرائي ما لم يكن هناك في العهد الجديد ما ينفي كل كلمة كتبتها أو قرأتها...

أنا: ألم تكن خائفًا؟

لوثر بنظرات يتذكر فيها ليلته الصعبة: كانت ليلة مرعبةً لي... ولكني هربت فامتطيت صهوة جوادي وأطلقت سيقانه للريح... ولكنهم لم يتركوني... فدخلت في مناظرة أخرى بعدها بقليل،وكان أمير المقاطعة يسعى لحمايتي وتهدئة الأمور بالنسبة لي، ولكن خلال إحدى المناظرات أكدت أن الإنجيل لا يمنح البابا الحق المطلق والوحيد في تفسيره.... لوثر (ضاحكًا): وهذه كانت بداية المصائب يا سيدي...

أنا: لماذا قلت هذا؟

لوثر: هذا طبيعي.... إن رحمة الله واسعة، ولو قُصِرت التفاسير على شخص محدد لكانت الطامة الكبرى...

أنا: عندنا مثل يقول: «الاختلاف في الرأي رحمة»...

لوثر: المسألة ليست رأيًا.. إنها بداية أي تسلط... أي تسلط يبدأ بكسر حق الغير في المعرفة أو الحصول عليها... هل فهمت؟

أنا: فسِّر أكثر من فضلك...

لوثر: القضية لابد أن ترتكز على حرية الوصول إلى العلم... لو أن الأخ في روما أصر على أنه الوحيد الذي يحق له التفسير فهذا معناه أنه الوحيد القادر على ضبط الإيقاع وحده... وهذا ضد أي فرص للتطور والفكر.

أنا: ولكن الدين واحد.

لوثر: لو كان كذلك لما انقسم أتباع كل الأديان إلى فرق مع احتفاظهم بأساسيات الدين موحدة... انظر مثلًا لليهودية ما بين الفريسيين وغيرهم من الطوائف، أنا قرأت عندكم في الإسلام أن هناك فرقًا متشددة وأخرى مسالمة وأخرى ... !

أنا: ولكنك تفتح المجال أمام الجاهل ليفسر كتاب الله!

لوثر: هم الذين صنعوا الجهل يا سيدي... مرة من خلال قصر لغة الدين على اللاتينية، ومرة أخرى عندما جعلوا المسيحي يستمع للقداس باللغة اللاتينية وهو لا يفقه منها شيئًا، وهذا كان ضروريًّا حتى يستطيع البابا في روما عمل ما يريد بلا رقيب...

أنا: من خطفك وأنت عائد من المجمع في «فورمز»؟

لوثر ضاحكًا: خطفني من حماني في بادئ الأمر... خطفني أمير ساكسونيا فريدريك... فلقد خبأني لفترة زمنية حتى أبتعد عن الأنظار بعدما خلقت لهم الفتنة تِلْوَ الأخرى... ولكن خطفي هذا جاء بفائدة حيث عكفت على ترجمة الإنجيل... هل تصدق لو كنت ألمانيًّا ولا تعرف اللاتينية أو اليونانية

فإنـك لن تقـرأ الإنجيل طوال حياتـك؟! هل هذا معقول؟ لـو أراد الله هذا لجعل السـيد المسـيح يتحدث بلغة غير لغة الناس الذين خطب فيهم وقربهم للإله وملكوته، ولكنه حادثهم بلغتهم... بلغتهم.. هل تفهمني؟

أنا: كيف خرجت من هذه المصيبة؟

لوثر باسـمًا: مشيئة الرب... عدت إلى مكاني تحت حماية الأمير وهناك بدأت أواجه التحركات الفكرية المناهضة، والتي كانت مدمرة للمجتمعات الألمانية...

أنا: أتقصد الفوضويين؟

لوثر: هذا تعبير لا أفهم كل أبعاده... ولكنهم على أية حال كانوا يرغبون في إشاعة الفوضى... التدمير والسرقة والنهب... مشاكل وكبت داخلي خرج مع أول ثورة فكر أو عقيدة... وهذا أمر طبيعي، فالثورة الفكرية الدينية التي ولدتهـا كان مـن الطبيعـي أن تُخـرج مثل هذا الكبـت، كل من لـه مظلمة أو مشاكل عالقة يرثها أبًا عن جد وجدت القشرة الضعيفة للخروج منها.

أنا: ولكن يديك ملطختـان بدماء المزارعين عندما أفتيت لهم بأن ثورتهم غير مبررة وسحبت منهم الشرعية فقتل منهم الكثيرون على أيدي الإقطاعيين الألمان؟

لوثـر: هناك سـوء فهم كبـير... فأنا لم أقـم بنشر تعاليمي حتى تُستخدم كأسـاس للفـوضى وتدمير النظام العام للبلاد أو الملكيـة الفردية أو الجماعية للمجتمعـات... هـذا كلام فارغ ومرفـوض... مرفوض تمامًـا... لقد كنت ضد «النظام الكنسي» وليس النظام العام للدول والمقاطعات...

أنا: هل تعرف حجم ضحايا المزارعين البسطاء الذين لقوا حتفهم؟

لوثر منفعلًا بعنف والعرق يتصبب منه: أنا قدت حملة ضد النظام الكنسي وليس النظام الحاكم... هناك فرق... الله طالبنا بأن نمنح «ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، والثورة لا مكان لها في عرفي يا سيدي... أنا رجل دين وأصلحت أحوال كنيسة ضعيفة، وليس من وظيفتي إصلاح نظام ملكية زراعية أو تركيبات سياسية...

أنا: هل قصدت أن تغير مسيرة العبادات في المسيحية؟

لوثر ضاحكًا: أنت تقول هذا لأنك مسلم.. لو كنت مسيحيًا ستعرف أنني لم أغير شيئًا، ففلسفة العبادة كما هي، ولكني خلعت عنها الزخرفة الزائدة، والتي لم يُنزل الله بها من سلطان... هذه هي الحقيقة... ولكن الفلسفة الأساسية قائمة... فالعبادة كما هي... ففكرة التناول مثلًا والمعروفة بمفهوم Trans-substantiation هي عماد الشعائر وهي قائمة... الموعظة قائمة، الأساس باقٍ ولكن الشكل اختلف..

أنا: ولكن لك كنيستك الخاصة الآن؟

لوثر: لا تقل هذا... هي ليست كنيستي ولكنها الكنيسة التي تتناسب ومفهوم وتعاليم السيد المسيح... المهم هو جوهر الأمور وليس الشكل يا سيدي...الأخ في روما مصمم على الشكل وأنا مصمم على المضمون.

ضحكت وقلت له: ولكنك زعزعت فكرة الرهبنة... وهي بالمناسبة نابعة من بلدي مصر، لماذا فعلت ذلك؟

لوثر مبتسمًا: لقد قرأت كثيرًا عن كنيسة الإسكندرية، وهالني أن أرى أنها قد ضعفت إلى هذا الحد، فلقد كنا نحتاج إليها في عملية الإصلاح الكنسي الذي نقوم به... هل تعرف قيمتها أم لا؟

أنا ضاحكًا: أعرف قيمتها جيدًا؟

لوثر: لا تسئ فهمي... أنا لا أقلل مما قدمته لنا كنيسة الإسكندرية... لا.. إطلاقًا... ولكنني رأيت أنه لا داعيَ لها خاصة إذا ما كان هناك تبسيط لمفاهيم الدين والوصول للمواطن المعتاد.

أنا مبتسمًا: وهذا ينقلنا يا عزيزي إلى زواجك أنت من «كاترينا فون بورا»... بداية هل تعرف أن هناك سيارة ألمانية تصنع الآن ويطلق عليها اسم «بورا»؟

لوثر مستغربًا: سيارة!! لا أفهم.

أنا ضاحكًا: وسيلة الانتقال في المستقبل... ولكن لا عليك... «كاترينا» كيف تعرفت إليها؟

لوثر مبتسمًا: لقد تعرفت إليها وهي مع مجموعة من الراهبات اللاتي التقيتهن ثم صارت قصة حب بيننا، وهي زوجة قلما تجود بها الأزمنة... هل رأيتها وهي تدخل علي؟

أنا مبتسمًا: نعم رأيتها...

لوثر: لقد وقفت بجانبي كما لم يقف أحد... لولاها لما استطعت أن أستكمل مشوار حياتي... هي إنسانة عظيمة، كانت دائمًا السند لي حتى إنها

كانت توفر لنا من الرزق بيدها وعملها عندما كانت تضيق بنا الدنيا... وقال بابتسـامة: إن أمثـالي تصعب الحياة معهـم... فأنا متقلب المـزاج حاد الطباع وأفكاري تجعلني غير مريح المعشر...

أنا: وقد أخذت دعوتك شكلًا سياسيًّا بعد ذلك، أليس الأمر كذلك؟

لوثر مبتسـمًا: لقد اسـتغل السـادة الأمراء الدعوة لإضعـاف الإمبراطور والكنيسـة معًا، فكانت هذه هي الـشرارة المنتظرة... ومع ذلك فنحن ما زلنا نعيـش في الصراع القائم بين الإمبراطور وأمراء المقاطعات الألمانية... من له الغلبة هم أم الإمبراطور وكنيسته؟

أنا: نعم... وسيستمر الصراع لفترة من الزمن حتى عام 1555م.

لوثر: كيف عرفت هذا؟

ثم استدار مبتسمًا وقال متنهدًا: باعتبار أنك من المستقبل، فهل لي أن أسأل عن نتائج ما صنع فكري وعملي؟ هل تعرفه؟

أنـا: لو قلت لك فهـذا يعني أنني أكسر الاسـتمرارية الزمنية، وقد أخلق تناقضًا زمنيًّا؟

لوثر: لا أفهم ما تقول... ولكن أعتقد أن أجلي دنا، وأنا في مرضي الأخير، وأشعر بالآلام في صدري... أليس هذا صحيحًا؟

أنا على استحياء: أجل يا سيدي...

لوثر: قل لي بارك الله فيك إذن...

أنـا: لقد أدت دعوتك لكسر سطوة الكنيسة الكاثوليكية، وهي الضربة التي لم تفق منها حتى زمني في القرن الواحد والعشرين.

لوثر وعلى وجهه علامات الارتياح: والله إنها تستحق ما هو أكثر من ذلك، فلقد فسدتْ فأفسدتْ فدمرتْ...، ولكنني واثق أن حركتي هذه ستسمح بخروج العلماء الحقيقيين من عباءة هذه المؤسسة وهي زاخرة بهم.

أنا: لقد اندلعت الحروب الطائفية في أوروبا ونهشتها تمامًا خاصة في ألمانيا مرتين، الأولى انتهت باتفاق «أوجسبورج» في 1555 الذي منح الحاكم سلطة فرض الديانات في الأراضي التابعة له.

لوثر سعيدًا: Cuius regio, eius religio أخيرًا Cuius regio, eius religio أخيرًا وافقوا عليه رسميًا... أنتم لديكم حكمة مأثورة قرأتها وتأثرت بها وهي « الرعية على دين ملوكهم».. أجل هذا هو معنى ما قلت باللاتينية.... فالكنيسة لم تعد تسيطر على الرعية وأصبح المبدأ العام هو سيادة الملوك... ماذا حدث بعد ذلك يا سيدي؟

أنا باستحياء شديد: ثم كانت أول حرب دمار شامل معروفة باسم حرب الثلاثين عامًا...

لوثر مقاطعًا: ماذا قلت؟! حرب لمدة ثلاثين عامًا؟!.. ولكن لماذا؟ بسببي أنا؟ كيف أواجه ربي؟

أنا: لتطمئن يا سيدي، فلقد كانت هذه الحرب بين المقاطعات الداخلية في ألمانيا ضد سلطة الإمبراطور النمساوي، فتوسعت الحرب حيث استُخدم

الدين ليكون ساترًا للمصالح السياسية بين الملوك والأمراء، فكان الأمراء يستخدمون الدعوة الدينية كأداة لضرب السلطة المركزية للإمبراطور... فكانت النتيجة في النهاية انتشار المذاهب البروتستانتية ومعها حرية المعتقدات وتثبيت مبدأ الرعية على دين ملوكهم في اتفاقية معروفة في وستفاليا.

لوثر: لقد عُلِّقَت دماء كثيرة في رقبة فكري... فهل من مخلص؟

أنا: لست قسًّا كي أخلصك يا سيد مارتن... ولكن التاريخ أنصفك.. «فالدم بقعة الحرية»... فلا تقس على نفسك... .

لوثر: كيف لا ألوم نفسي؟

أنا بابتسامة حانية: إن ما حدث أمر طبيعي يا سيدي... فلقد حررتَ الفكرَ من تسلط الكنيسة والنظام السياسي الغاشم... وهذا التحرر مثل التخلص من الاستعمار له ثمن... أو ليس من معتقدك أن السيد المسيح مات مصلوبًا تكفيرًا عن ذنوب البشر؟ ولا تنس أن الذنب السياسي غفر بالنتائج الدينية لهذه الحروب.

بدأت علامات الراحة على وجه الرجل ونظر إليَّ بابتسامة ولم يقل شيئًا...

فقلت له: سيد لوثر هل تدرك ما فعلت؟

سيد لوثر... سيد لوثر ... سيد لوثر... .

لم يحرك الرجل ساكنًا ولكنه خرج من الدنيا كلها تاركًا إياها في مسار مختلف عن الذي كان سائدًا يوم أن ولد... فلم تزل الابتسامة في وجهه، كما لم تزل فكرة احترامي لهذا الرجل الذي غيَّر تاريخ أوروبا وأثرَّ على البشرية كلها!!

نابليون
بونابرت

نابليون بونابرت

لا أستطيع أن أخفي أنني كنت في فترة عمرية محددة مهتمًّا بالسيرة الذاتية للإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت، مما أدى بي لقراءة الكثير من الكتب عن حياته وحروبه وسياساته ورسائله الخاصة والعامة، إلى الحد الذي دفعني لاقتناء لوحة تاريخية أصلية له، كما أنني شاهدت أغلبية الأفلام المنتجة التي تتناول سيرته الذاتية، والتي أعتقد أنها لم تستطع أن تلمس شخصية وروح هذا العبقري باستثناء واحد، وقد كنت دائمًا أنظر إلى صورة للإمبراطور الفرنسي وهو في منفاه الثاني بجزيرة «سانت هيلانا» بعد أن تحطم حلمه، وأتخيل دائمًا دوره وقوته عبر التاريخ، إلى أن شعرت في يوم وأنا أنظر إلى هذه الصورة أنني موجود على الجزيرة وواقف خارج بيت نابليون وأسعى للقاء معه.

بالفعل استطعت أن أتحدث مع كبير ضباط الحراسة وأقنعه بترتيب لقاء لي مع الإمبراطور، ولكنه حذرني من أن الرجل حاد المزاج، عنيد الطباع، وقوي الشكيمة وأنه كثيرًا ما يثور وينتقدنا، وشدد على أنه سيسعى لإبلاغي بالموعد المحدد باكرًا، وبالفعل في الوقت المحدد سُمح لي بالدخول إلى حجرة استقبال الإمبراطور، وجلست أنظر حولي في البيت وهو متواضع للغاية؛ فيه

شبابيك خشبية وستائر من قماش عتيق، ولا توجد به أية لمسات جمالية، وهو لا يقارن بالبيوت أو القصور التي عاش فيها الإمبراطور.

سمعت أصوات رجليه خارج باب الحجرة، ونظرت إلى الباب وهو يفتح، وها قد دخل شـاحبَ الوجه وعليه علامات الإجهاد من جراء مرض معدته وزيادة وزنه، والذي قارب أو فاق المائة كيلوجرام بما لا يتناسب وطوله الذي لا يتعـدى 165 سـم، ها هو نابليـون قد انعكس عليه عـبء العمر والمعارك وشظف المنفى في هذه الجزيرة المنعزلة في المحيط الأطلنطي، ولكن كل هذا لم يأخذ شيئًا من عزة نفسه وكبريائه في تخطيه للأمتار القليلة إلى أن اقترب مني، فالرجـل كان أنيقًـا يمشي بعظمـة، ونظرته فيها حـدة وذكاء تبعث على القلق والرهبة، ويلاحظ أن رونق المُلك لم يُنتزع منه رغم ظروفه الصعبة.

خلـع الرجل قبعته الشـهيرة وهو يجلس بزيه الأبيض والأزرق الشـهير، ودعـاني للحديث مبتسـمًا قائلًا: «لو كنت معي في قصر فرسـاي أو فونتانبلو لكنت قدمت لك ما هو أفضل من هذا الشـاي المتشبع بالرطوبة، وكأنه جزءٌ من سمة التعاسة التي تحاصر هذا المكان..

لم أجـد نفـسي إلا منحنيًـا احترامًا أمام من لمس الموت وعشـق الحياة، من ذاق العـزة والنـصر، وتجـرع الذل والهزيمـة، ولكن الرجل قطـع حبل تأملي قائلًا بصوت صارم: «تفضل... أنت في حضرة الإمبراطور».

خرج سـؤالي الأول باستحياء قائلًا: لو عاد بك الزمن سيادة الإمبراطور في مناسبتين ماذا كنت ستفعل لتغير الحاضر؟

نابليون مبتسمًا: هذا سؤال أسأله لنفسي كل يوم في منفاي هذا... بداية ما كنت لأنقض معاهدة «تلست» مع القيصر الروسي، فكنت بذلك سأغلق الجبهة الشرقية، والتي ما كان يجب أن تُفتح، وثانيًا كنت سأحتل إنجلترا بدلًا من المغامرة الروسية.

سؤال: لنرجع إلى الوراء بعض الشيء...

نابليون ضاحكًا ومقاطعًا: أنا لا أنظر خلفي منذ أن التحقت بالكلية الحربية الفرنسية بعد هجرتنا من جزيرة كورسيكا، فأنت تطلب مني ما لا طاقة لي به، ثم طأطأ الرجل رأسه وقال بنظرة حزن: ولِمَ لا؟!... فلنتحدث في الماضي مادام لا يوجد مستقبل لي في هذه الجزيرة التي لن أغادرها.

سؤال: هل علاقتك بفرنسا كانت حقيقية؛ فأنت لم تكن فرنسيًّا بل كورسيكي المولد، فكيف استطعت حب وطن غريب عليك؟

نابليون منفعلًا: كلام فارغ بلا مضمون! وهل كانت كاترينا الكبرى قيصرة روسيا روسية؟! كانت ألمانية... وهل محمد علي والي مصر مصري؟... لا... فلا داعي لخلط الأمور... لقد أصبحنا فرنسيين، وتعلمنا اللغة الفرنسية... وصحيح أنهم كانوا يعايرونني لوجود لكنة إيطالية في لساني... ولكنهم باتوا يمجدونني لفرنسيتي... أليس هذا من سخرية الحياة؟

سؤال: لقد كانت أمك ليتيزيا وأسرتك سببًا في تعاستك العائلية؟

نابليون متنهدًا: يا عزيزي... أمي كانت امرأة صعبة، لم ترض بشيء، كانوا مزعجين جدًّا، وكنت أنا عائل هذه الأسرة، رغم أني لم أكن الأكبر سنًّا، ولكنني صنعتهم جميعًا وسخَّرت لهم الكثير... أوليس هذا حبًّا للعائلة؟

سؤال: يقال إنك كنت من المتفوقين في الكلية وإنك كنت متخصصًا في المدفعية؟

نابليون يرد بابتسامة: كنت من الأوائل في الرياضة ومادة التكتيك العسكري،والمسائل اللوجستية تعلمتها على كبر، وبالمناسبة أنا كنت منطويًا بعض الشيء لضيق ذات اليد والحاجز الثقافي النسبي.

سؤال: يقال إن أفضل معاركك على الإطلاق كانت معركة «تولون» عندما ساهمت في الدفاع عن المدينة بمناورة قوية بعد تخرجك في الكلية العسكرية؟

نابليون ضاحكًا: لا ترجعني لهذه الأيام، والتي كنت فيها شابًّا ويقل وزني، ولن أقول رطلًا مثل الإنجليز لأنني أمقتهم...؛ ويومها أُصبت إصابة بالغة ولكنني صمدت... هذا حال العند الكورسيكي، وبالمناسبة... حتى هذا العند سخرته لخدمة السياسة.

سؤال: ولكنك لم تلفت النظر بقوة إلا خلال إخماد الثورة الملكية المضادة أليس...؟!

نابليون مقاطعًا بحدة ورافضًا لسير الحديث: نعم دافعت عن حكومة «الديركتوار» الثورية ضد بقايا الملكية، ولولاي لسقطت الثورة الفرنسية في الانقلاب المضاد المدبر من قبل الملكيين، والذين كانوا يحومون حول الحكم منذ سقوط روبسبيير الدموي في 1794م.

تدخلت مقاطعًا: ولكن على يديك جَرَتْ دماء أكثر من ألف وأربعمائة

مواطـن فرنسي؛ كل جريمتهم أنهـم كانوا يريدون تغيير النظـام الثوري بعد فشله، لقد استخدمت المدفعية ضد المواطنين.

نابليـون: كلام فارغ ... فأنت لا تعرف الحقيقة... أنا لسـت متسـلقًا ولم أفعـل ما فعلـت بقتل المئـات إلا حمايةً للثـورة.... وكان لابد من اسـتخدام المدفعية؛ فهو السـلاح الوحيد الذي كان يحسـم الصراع... وأنا أرفض تمامًا اتهامي بالتسـلق السـياسي، ولو اسـتمرت هذه التلميحات فسأنادي حرسي الجمهوري وأطردك على الفور... فأنا إمبراطور فرنسا الذي أعطى لها قيمتها التاريخية بعدما داست عليها الدول المختلفة... ألم تقرأ التاريخ؟!

سـؤال: ولكنك لا تسـتطيع أن تنكر أنه تم تصعيدُك بعد ذلك وفي سن مبكـرة للغايـة حتى عينت قائـدًا للجيش الفرنسي في إيطاليـا ثمنًا لإهدار دم الثوار بمدفعيتك التي استخدمتها ضدهم.

نابليون في ضيق: التصعيد كان على أسـاس القدرات والمواهب، وهو ما تفتقر إليه أنت في إدارة الحوار معي.

وقفـت لحظات لأهدئ من سـخافة التلميحات فسـألت: يقال إن الحظ خدمك كثيرًا...

نابليـون مقاطعًـا: هـل تعـرف شـيئًا؟... عندما كانـوا يعرضون عليَّ أسـماء الجنرالات والقـادة كنت أسـتفسر دائمًا: هل هذا الشـخص محظـوظ إلى جانب كفاءتـه؟... ما قيمة الكفاءة لو أن الحظ لم يبتسـم لـك... خاصة عندما تُقبل على المعـارك الكبرى؟ ثم قال لي بنوع مـن الغرور: هل تعرف معنى المعركة؟... أنت

لا تستطيع أن تفهم... المعركة هي حركة! دماء! صهيل خيل! تشكيلات تتحرك! قائد في العدو غبي تسعد به أو آخر ذكي تقلق منه... غبار... آلام وصرخات جنود..، رائحة الموت إن لم تُشعرها بأنك لا تأبه بها فسوف تأبه هي بك لتزيدك رعبًا... بالله عليك كيف تريد أن تكون عبقريًّا بلا حظ في ظل هذه الظروف؟

سؤال: أنت محظوظ جدًّا في معاركك.

نابليون يضحك بكل قوة قائلًا: أوليس هذا منظر شخص نفد حظه؟ أين الحظ الآن يا صديقي؟

سؤال: ولكنك كنت تملك أوروبا إلا روسيا فلماذا المغامرة بمحاولة احتلالها وتدمير الجيش الفرنسي الكبير.. الـGrand Armee؟

نابليون يرد وعلى وجهه أمارات الانزعاج: ولماذا ذهب الإسكندر لحدود الصين؟... لماذا فتحت الإمبراطورية الإسلامية كل هذه البلاد؟... لماذا احتل جنكيز خان كل هذه الأراضي؟ إنها السياسة والقوة والمجد.

سؤال: أولم تتعلم من التجارب الفاشلة للسابقين وأنت قارئ لها؟

نابليون ضاحكًا بكل عزمه: وهل معرفتك بالمرض تقيك شره؟ وما أدراك ما شر سكرة السلطة والقوة والمجد؟!...، ثم تدارك لسانه قائلًا: المجد لبلادي أقصد.

سؤالي: وماذا عن المجد الشخصي؟

نابليون ضاحكًا: وهل هناك أعظم من مجدي الذي بنيته بذكائي

وعبقريتي وقدراتي، فأنا ستتغنى بي كتب التاريخ، وينحني لي جنرالات المستقبل...، انظر إلى معركة «مارنجو» في إيطاليا، ومعركة «أوسترلتز» في 1805م في النمسا، ومعركة «ينا» في 1806م ضد البروسيين... أليس هذا عظمة ومجدًا؟!

نظرت إليه نظرة ثاقبة بتحدٍّ وقلت له: ولكن في معركة «مارنجو» بإيطاليا عام 1800 كدت تهزم لولا...

نابليون مقاطعًا بحدة: أعرف ما ستقول... لولا أن «ديسيي» الذي حول بهجومه الأخير الهزيمة إلى نصر... ولكن هذا بتعليمات مني... فلقد وجهته للقيام بالمناورة بعد هزيمتنا في الصباح، وقلت له كيف يقوم بها... ثم ما الضرر في ذلك فأنا من اخترته معي... ألم أقل لك إني أحب الأَكْفَاء المحظوظين الذين أستظل بحظهم؟!... لقد سمعت عندكم في مصر مثلًا جميلًا وهو «اسعد بجار السعادة» وبالمناسبة فإنني سميت حصاني الذي لم يفارقني باسم المعركة، فكان مارنجو معي حتى معركة واترلوو في 1815م، وقد كان فرسًا عربيًّا أصيلًا وشجاعًا...

قلت له: تقصد من جاور السعيد يسعد؟

نابليون مبتسمًا: والله ما وجدت السعادة في مصر بل كل التعاسة.

سألته: ما انطباعك عن الحملة على مصر في 1798م؟

نابليون ضاحكًا: كان الجو حارًّا في الصيف... والمصريون انتفضوا مرارًا، ولولا «أبو عين واحدة» نلسون وإغراقه للأسطول الفرنسي في معركة أبي قير

ما فشلت الحملة من الأساس، ولكنني لا أستطيع أن أنكر أنني مفتون بمصر وعبق التاريخ فيها.

سؤال: لماذا حاولت خديعة المسلمين بالتقرب إلى الإسلام؟

نابليون: لا خديعة في السياسة، فالمصريون شعب متدين، كما لاحظت، وهذه كانت وسيلة التقرب منهم حتى لا يثوروا عليَّ... وبالمناسبة لم تنفع فقد ثاروا ضدي مرتين في غضون أشهر قليلة... حتى إنني أعتقد أن الثورة الفرنسية انتقلت إلى مصر فبدلًا من الثورة ضد الطغيان حاربوا المحرر.

سؤال مقاطعًا: محرر؟ كيف وأنت مستعمر؟!

نابليون مبتسمًا: ألم أنقل لمصر ما لم تشاهده من تقدم ورقي بعد قرون من الغفلة؟

سؤال: ألم يعد هروبك من مصر تحت جِنْح الظلام تخليًا عن زملائك وقيادتك؟

نابليون: أنت لا تفهم... لقد كانت حملة ميئوسًا من نجاحها بعد غرق الأسطول يا سيدي... هل كنت تريد أن أستسلم مثلما فعل جاك مينو للإنجليز؟ ثم إن وجودي في فرنسا ساهم في دفع إنجلترا إلى السلام معنا، ولولا هذا لسُحقت الحملة... أنا من أنقذتهم بعد ذلك عندما أعدت التوازن لصالح فرنسا.

نظرت إليه نظرة استفزاز فقلت له: وهل هروبك كان بسبب شعورك أن لك من الشعبية في الشارع الفرنسي التي قد تمنحك أعلى السلطات؟

نابليون متحديًا وهو رافع حاجبه الأيمن: وما الخطأ في ذلك؟!... أنا

كنت طموحًا وكان عمري صغيرًا ولم أجد غضاضة في ذلك... ولا تنس أنني قدمت لبلادي ما لم يقدمه لها ولا حتى الملك لويس الرابع عشر، ثم إنني جئت بحب الشارع وبقيت بحب فرنسا وحاربت لها وأنا منفي هنا في سبيلها.

أنا: البعض يرى أنك دمرتها!

نابليون ضاربًا بيده بكل عنف على منضدة أمامه لتهتز فناجين الشاي: هذا جنون!... أنا لم أدمرها!.. لو أنني انتصرت في «واترلوو» كنت سأعيد لها رونقها!... كفى عبثًا في كلامك!... لقد صنع نابليون لفرنسا ما لم يصنعه غيره.

أنا مقاطعًا: لنتحدث عن حياتك العاطفية... لماذا تزوجت جوزفين وهي تكبرك بسنوات كما أنها لم تكن جميلة؟

نابليون ضاحكًا: لها مميزات لا أعتقد أنك ستفهمها... كما أنها ساعدتني في التواصل الاجتماعي، وفي المقابل أعطيت لها حياة مادية أفضل... فلا تنس أني كنت بلغتكم «حَبِّيب»، كما أنني وقعت في حب أولادها، خاصة طفلتها «أورتانس» ابنتي التي ليست من صلبي.

أنا مقاطعًا: ألم تخنك جوزفين وأنت في حملة مصر؟

نابليون بلغة حسم: الخيانة نسبية... ثم إنني لم أتزوجها وهي قديسة يا فتى... لقد غضبت ولكني عفوت... من قال إنني لا أعفو؟ ثم إنني لم أكن مثالًا للنزاهة فيما يتعلق بالنساء، فلقد كنت محبًّا للجنس اللطيف عاشقًا له.

أنا: مفهوم... ولكن ماذا عن زواجك من «ماري لويز»؟

نابليـون ضاحـكًا: قبّح الله وجـه تاليراند وزير خارجيتـي الخائن... فهو الـذي زوَّجنـي هذه الزيجة التعيسـة لضمان علاقـات إيجابية مع النمسـا، أما مـاري فقـد علمتني التعفف عن النسـاء. ثم استـدار جالسًـا وقـال بصوت ضاحك: هل رأيت شكلها بالله عليك؟ فالأساس في عائلة الهابسبورج أنهم كانـوا عـلى علاقة عداء مع الجـمال، انظر إلى ذقونهم جميعًا فهي أشـبه بمثلث هندسي كان عندي في الكلية.

سؤال: ماذا عن ابنك؟

تغـيَّرت أمـارات الابتسـامة في وجهه فقال بهـدوء: هو قريـب مني جدًّا وهذه صورته بجواري... هل رأيت؟... الرسام الأحمق رسم ابني بدينًا لأنه أراد أن ينافقني، ولكن ماذا نقول... لم تشأ الأقدار أن أنهل من بنوته، ولكني تركت له اسمًا خالدًا!!

سـؤال: وماذا عـن البولندية «ماريا والوسـكا»، ألم يؤلمـك أن تنجب من امرأة متزوجة من غيرك وزوجها من صفوة المجتمع البولندي؟

نابليون: لماذا أنت دائم الاستفسـار عن المسائل الأخلاقية؟! هذه الأمور لا تعنيني كثيرًا... وما المشكلة؟!

سؤال: لكنها متزوجة، أليس كذلك؟!

نابليـون متحديًا: هي كانت تعرف منذ البداية أنني أريدها، وزوجها كان يعرف ذلك، وكل شيء تم برضائهما، فما الضرر في ذلك؟!

سؤال: هل أحبتك ماريا؟

نابليـون بنظرة غرور وابتسـامة خفية: من الواضح أنـك لم تزر العواصم الأوروبيـة المختلفـة ولم تسـمع فيها عـن صيتي يا سـيدي! ... ما مـن امرأة أوليتها اهتمامي إلا وأحبتني... ماريا لم تختلف عنهن.

أنا: إلى الحد الذي تنجب منها؟

نابليـون ضاحكًا: لقد كانت هناك مقولة شـهيرة للقيصر الروسي «بول» عندما ولدت زوجة أحد أبنائه طفلًا يميل للسـواد بعلاقة سِفاح مع عشيقها الأسمر، فقال: «كفى أسرة الرومانوف أولاد سفاح»... أما أنا فلم أنجب إلا واحدًا قبل ماريا، ثم نظر إليَّ ضاحكًا وقال: بالتالي فلا يكفيني سفاحًا بعد... ولكن في هذه الجزيرة لا توجد نساء.. اللهم إلا بعض النساء القبيحات اللاتي يجعلن لياليك أتعس من الوحدة.

أنا: ألم يكن ذلك مقابل الاعتراف باستقلال بولندا؟

نابليون مقاطعًا: لا... هذا هدفهم هم... أما أنا فلم ألتزم بشيء إلا حبي لها.

أنـا: لقـد قيـل عنك إنـه رغم حبـك للنسـاء فإن «دسـتور نابليـون»، أو التعديـلات القانونيـة التـي أدخلتها، تناولـت كل حقوق المواطـن الفرنسي وحرياته إلا حقوق المرأة!

نابليون منفجرًا من الضحك: وماذا في ذلك؟ ... أتذكر أن امرأة سألتني هـذا السـؤال ذات مـرة فقلت لها إن الطبيعـة وهبت للمرأة قـوة ونفوذًا على الرجل، فرأى قانون نابليون أن يسحبها منها وعدم منحها حقوقًا إضافية.

أنا: متى أدركت أن الحلم ضاع؟

نابليـون متحسرًا: عندما عـدت أدراجي من الحملة الروسـية، حتى قبل معركـة «ليبزيـج» في 1813م التي انهزمـت فيها للقوة الفائقـة من التحالف ضـدي، وإن تسـميتها بـ «حرب العالم» ليسـت مـن فراغ، كما أننـا كنا نعاني اختلالات لوجستية أثرت على مجرى المعركة.

أنـا: ولكـن يقـال إنك لم تكـن مبتكرًا في إدارتـك للمعركة وكـذا معركة «واترلوو»؟

نابليـون بضيـق ملحوظ: من أين تجـيء لك هذه الأفـكار؟ أما قرأت أو سـمعت أن مـن أعظـم إنجـازات الإمبراطور العسـكرية تحصينات فرنسـا عندمـا بـدأ الحلفـاء غزوها بعـد «ليبزيج»؟ هذا دليـل على أنني كنـت واعيًا ومـدركًا لكل شيء وعندي الابتكار لأقدمه، ولكـن الظروف لم تكن مواتية في هاتين المعركتين.

أنا: ألم تدرك عند مرحلة ما أنك يجب ألا تستمر في إثارة عداء الناس لك خاصة الإنجليز والروس؟

نابليون مبتسـمًا وهو يرشف من فنجان الشـاي: الإنـجليز دولة أصحاب متاجر، هذا كان رأيي فيهم من البداية... وطبيعي أن ينتحر وزير خارجيتهم كاسلراي لأنهم شعب كئيب.

أنا: أختلف معك ولكن ...

نابليـون مقاطعًـا بصلـف: مـن قال لـك إنني لم أحـاول السـلام معهم؟ الإنجليز لم يرغبوا في ذلك لأنهم يريدون كسر بلادي، لقد حاولت في صلح

«أميـين» عـام 1802م، أما الروس فهذا القيصر ألكسـندر لا يفهم شـيئًا... هـل تعلـم أنني كتبت لجوزفـين بعد اتفاقية تلسـت في 1807م أقـول لها إن هذا الألكسـندر لو كان امرأة ما تركته بعيدًا عن عيني؟!، ولكن للأسـف لم يكـن كذلك، ولكن جمال الطبيعة لم ينعكس على فكره أو قيمته السياسـية... فلقد كان متواضع القدرات، متأرجح المزاج يمينًا ويسـارًا وكان غير مأمون العواقب، وهو ما دفعني لعدم الوثوق فيه.

أنـا: ماذا كان شـعورك عندما وقَّعت على وثيقة التنـازل وقبلت المنفى في قصر «الفونتانبلو»؟

نابليـون بابتسـامة أسـى: كانت أتعس لحظـات عمري، خالجني شـعور يومها بالفراغ... شـعور بأنني أخفقت... بأنني حانق على العالم؛ خاصة على الأقزام الذين أذلهم سـيفي ومدفعي... أما من أحسنت إليهم فقد كانوا رمزًا للحقارة، ومـا الجديد؟!... ألم يقل يوليـوس قيـصر «حتى أنت يا بروتس» وهو يطعنه؟!... ألم يكن بروتس ابنًا لقيصر.

أنـا: بعـد هروبك من منفـى جزيرة ألبا، مـاذا حدث؟... لماذا لم تسـتطع السيطرة على الظروف مرة أخرى؟

نابليـون متنهـدًا: لا لا لا ... الظروف كانت مختلفة، صحيح أن الشـعب كان معـي، ولكـن المؤسسـات لم تكـن كذلـك، فلقـد تم تسـخيرها لصالح النظام الملكي السـابق، والشعبية شيء وإدارة الدولة شيء آخر، كيف أديرها والخزانة خاوية والجيوش متربصة بنا من كل اتجاه، فاخترت أن أكسر الجيش

الإنجليزي المتمركز في بلجيكا شمالًا بقيادة ولينجتون حتى أستطيع التقاط الأنفاس وأكسب وقتًا ثمينًا يسمح لي بتنظيم الدولة من جديد، ولكن الجيش لم يكن مستعدًّا رغم أن الشعب كان يرنو لانتصار جديد.

أنا: لماذا اخترت قيادات ضعيفة معك؟

نابليون: لم أختر أحدًا ولكن الظروف اضطرتني، فأنا لم أكن معجبًا بـ «صولت Soult» رئيس الأركان؛ فهو رجل متحفظ وثقيل الظل،... كان موظف التوجه قليل الفكر وضعيف التقدير، ولكنه كان المتاح يا سيدي.... ولكن ندم عمري كان على المدعو «جروشي» الذي منحته بغبائي الشديد رتبة الجنرال... فلو كنت انتصرت في «واترلوو» لكنت قد سحقته كما قتلوا هذه الملكة في مصر واسمها كان إيه؟....

أنا: شجر الدر.

نابليون: تمامًا... والله بالقباقيب على أم رأسه.. لعنة الله عليه أينما كان، فلقد تاه وتوَّه معه ثلث جيشي في البحث عن الجيش البروسي الذي هزمته قبلها بيومين دون جدوى، فكانت النتيجة أنني حاربت جيشين بثلثي جيشي.... هل هذا عدل؟! ثم تقول لي لماذا هزمت؟

سؤال: لا عدالة في السياسة.. أليس كذلك؟

نابليون: لا عدالة في الحياة، والسياسة جزء من الحياة... ولكنني أفصح لك أن الحظ فارقني في هذه اللحظة.

سؤال: هل لديك أمل في العودة إلى فرنسا؟

نابليون ضاحكًا بأسى: نعم .. بعد مماتي.

سؤال: لماذا؟

نابليون: لأنني أشعر بتعب وإعياء شديدين حتى ونحن نتحدث... فشعوري أنني لن أتم عامي هذا.

سؤال: ولكنك كنت تعاني أمغاصًا شديدة حتى قبل واترلوو؟

نابليون: لقد تعلمت أن الأقدار تختار طرقها، فما بالي أختار ما لا يد لي فيه؟!

سؤال: هل أصبحت متدينًا؟ هل تصلي؟

نابليون ضاحكًا وهو يهم واقفًا إيذانًا بإنهاء اللقاء: أولم تقرأ شيئًا عن علاقتي بربي؟ ...سأتركك تخمن ولقرائك التقدير...

عند هذا الحد هبَّ الرجل واقفًا، متحركًا صوب الباب قائلًا: لقد هزمني الكم الكبير من الجيوش وليس جنرالاتهم... فما الذي يجعلك تعتقد أنك تستطيع أن تطل بعينيك في أعماق روحي ووجودي؟ لقد فشل نلسون وولينجتن وبلوخر ومترنيخ ...وغيرهم.

ثم استدار وفتح الباب، فخرج الرجل في لحظة صراع بين النهار والليل على جزيرة نائية، في محيط معزول... خرج الإمبراطور المقهور من باب الحجرة ورأسه ينظر لأسفل ورجلاه تكادان لا تحملان وزنه، وأخذ يصرخ في الحراسة الإنجليزية: لن تستطيعوا كسر عزيمتي... قولوا هذا لقائدكم

الســخيف الــذي دأب عــلى تنغيــص حيــاتي والتضييــق عــليَّ... أنــا نابليون إمبراطور كل الفرنسيين.

ثــم اختفى الرجــل من أمامي ولكنــه سرعان ما اختفى مــن الحياة يوم 5 مايــو عــام 1821م، فمات القائد الذي قلما تجود فرنســا بمثلــه، رجل حاول تغيــير وجــه التاريــخ، فغيَّر التاريــخ حياته، فــمات الرجل محســورًا في جزيرة ســانت هيلانا بعيدًا عن الجميع ليعود جثمانــه ليوضع في «الإنفاليد» بباريس وســط زائريه الفرنســيين الذين يمثل لهم العظمة، ولآخرينَ يمثل العظة من رفــات قاهر أوروبــا وهو يرقد في قــبره وخلفه ميراث من الحــب الفرنسي لم يستطع أحد منافسته عليه.

الخليفة
أبو
العباس
السفاح

الخليفة أبو العباس السفاح

تعد مدينة الأنبار من المدن المهمة في التاريخ الإسلامي فهي العاصمة الأولى للدولة العباسية، وفي هذه المدينة العريقة وقفت أتخيل نفسي سائرًا فيها عام 136 هجرية (745م)، حيث كان السوق يكتظ بالمارة من الباعة سادة القوم وعامتهم، وكان السوق كما توقعته تمامًا، ولكنني رأيت في أقصى شمال المدينة موكبًا معزولًا يمشي وفيه من الأبهة ما يعكس أنه لشخصية مهمة، فسألت عمن فيه، فقيل لي إنها «أم سلمة» زوجة الخليفة أبي العباس وابنه وابنته معها.

لم أتمالك نفسي وجريت صوب الموكب فلقد كانت فرصة عمري في التعرف إلى شخصية قلما تتكرر في التاريخ الإسلامي، فهي امرأة ذات شخصية قوية للغاية، فهي التي طلبت الزواج من أبي العباس عندما رأته، كما أنها هي التي دفعت مهرها لنفسها لأن الرجل كان مفلسًا ولم يكن معه ما يكفيه للزواج منها أو من غيرها، فهي إذن التي أُعجبت بالرجل وتزوجته، فهي التي وصفها الشعراء بريحانة بني مخزوم، فجدودها من أبناء عمومة سيف الله خالد بن الوليد... لقد تزاحمت كل هذه الأفكار فلم أشعر بنفسي

إلا وأنا أجري خلف الموكب طالبًا الحديث إلى زوجة الخليفة، ففوجئت بالحراس ينهالون عليَّ ضربًا، واثنان من الخصي يجريان خلفي بسيوفهما لضرب عنقي...

ماذا أفعل هنا... يا للهول!! لقد نسيت نفسي وطويت ثلاثة عشر قرنًا من الزمان ونسيت أنني أسعى للتحدث مع زوجة الخليفة، وهنا ليس مثل أيامنا هذه؛ ففي عالمنا قد تسجن أو يتهمونك بالعته، ولكن في هذه الأيام فإن ضرب عنقك هو العقاب لمحاولة الحديث مع زوجة الخليفة، وأدركت أنني لابد أن أكون قد فقدت صوابي... فصرخت بكل قوة: رحمة بنا يا أم المؤمنين... ياريحانة بني مخزوم... وا نجدتاه.

وكأن شيئًا ما حدث، فقد سمعت صوت رجل من بعيد يقول أحضروه على بعد عشرين ذراعًا منا فأوقفوا الضرب وأتوا بي مغلولًا حتى قربت من الموكب بحيث تسمعني «أم سلمة» زوجة الخليفة، ثم قال لي الصوت: تكلم وإلا ضربت عنقك. فقلت له: تحمست، فتسرعت، فخسرت. فرد عليَّ الرجل وقال: «لغة غير اللغة... ولسان غير اللسان، من أنت ومن أين أتيت؟».

فكرت للحظة فهذا هو السؤال الذي سألته لي كل شخصية تاريخية تحدثت معها في خيالي، فماذا يمكن أن أقول والحراس من كل اتجاه ولكنني صرخت بأعلى صوتي: أنا من لا تعرفون له مثيلًا، أعرف ما لا تعرفون، وأستطيع أن أقول لكم شيئًا عن المستقبل... فأنا أريد الحديث مع الخليفة أبي العباس، فأنا من مصر، والتي يحبون فيها آل البيت حبهم للحياة.

لم يتأخر الرد، فوجدت الناس يسوقونني لبيت الخليفة وإذ بي أتحدث من خلف ستار «لأم سلمة» زوجة الخليفة فقالت لي بصوت قوي يعكس شخصيتها: ماذا تعرف عن المستقبل يا رجل؟ فقلت: لا أعرف إلا ما كتبته كتب التاريخ.

ضحكت أم سلمة وقالت: وهل يذكرني التاريخ يا رجل؟

أنا: بكل تقدير وتبجيل يا أم المؤمنين.

أم سلمة: ماذا يقول عني التاريخ؟

أنا بهدوء: إنك كنت من أقوى الشخصيات تأثيرًا على زوجك أمير المؤمنين، وإنك كنت من خيرة مستشاريه في أمور دنياه كافة، كما يقولون إنه كان... كان... يمكن القول إنك كنتِ... أقصد...

أم سلمة بحدة: تكلم يا رجل.

أنا بصوت مهموم وضعيف: إنك كنت قوية الشخصية عليه وإنه كان يخشاك... وكان يخشى التعرف إلى النساء الأخريات بسببك.

أم سلمة ضاحكة: وماذا أيضًا؟!

أنا: لو أخذت منك ميثاق الله على أن أتحدث مع الخليفة، فسأقول لك ما لن يقوله لك غيري!

أم سلمة بلؤم شديد: أستطيع أن آمر بضرب عنقك، أو أن أمنحك حديثًا مع الخليفة، فما عساي أن أكون فاعلة؟

أنـا بخبـث: ريحانة بني مخـزوم تأمر بالحوار مع الخليفـة... فما نفع ضرب العنق يا عظيمة قريش؟!

أم سلمة: قل ما عندك وسوف أقرر فيما بعد.

أنا: لن ينكح السفاح سواك، ولا حتى ما ملكت أيمانه... ولكن احذري من الشعراء وأصحاب الفتن والميول، فهم سيعملون..

قاطعتني قائلـة: لا عليـك يا رجـل، فجملتـك الأولى لـك، والثانية لي، ولقاؤك مع الخليفة بعد صلاة العصر...

فرحـتُ فرحـةً غامـرةً وأخـذت أجهز نفـسي للقـاء الخليفـة أبي العباس السـفاح، وأخـذت أتفكر فيما سـيكون عليه هـذا الرجل، هـل كان ابن كثير محقًّا في وصفه، والطبري صادقًا في قصصه؟ هل هو دموي سفاح كما وصفته كتـب التاريخ، أم سـيكون رجل ديـن وعلم وورع كما وصفتـه كتب تاريخية أخـرى؟ إنه رجـل المتناقضات، سـياسي لا قلب له، إنسـان اجتماعي حليم، رءوف بمـن حوله. إنها المتناقضات متجسـدة في شـخصه، فهـو رجل تقول كتـب التاريخ عنه إنه كان وديعًـا ودمويًّا، فيا ترى ماذا يخبئ لي اللقاء؟ ومتى يؤذن الرجل لصلاة العصر؟

لم يطل انتظاري، فسرعان ما سمعت الأذان يرفع، فصليت العصر وبعدها دخـل عليَّ رجال القصر فسرت معهـم إلى حيث كان الخليفة يجلس ويشرب بعـض المشروبات، ووجدتـه ينظر إليَّ والابتسـامة على وجهـه، فأدركت أن زوجتـه قـد قالت فيَّ ما أعجبـه، ولا أخفي سرًّا أنني كنت أخشـى الاقتراب

منه، فهو «السفاح» الذي اختلف المؤرخون حول سبب تسميته، فالبعض يرى أنه كان سفاحًا يقتل الناس بالعنف، والبعض الآخر يرى أنه كان سخي العطاء؛ فالسفاح هنا بمعنى الكريم....

تداخلت الأفكار، وزاد التوتر وأنا مقبل عليه، والرجل لا تفارقه ابتسامته وهو ينظر إليَّ، ولقد نسيت لوهلة أنه شاب قاربَ الثلاثينَ من عمره، وهو كما وصفه ابن كثير بالضبط، أبيض ناصع البياض، وجهه يميل للوجوه الملائكية، أنفه مكتوم بعض الشيء إلى أسفل، منكوش الشعر، لحيته منضبطة، وكما قال: «حسن الوجه»، إنه شاب بكل ما تعنيه الكلمة، وأغلب الظن أن زوجته كانت تكبره بعدد لا بأس به من السنين ومن ثَمَّ كانت غَيْرتها الشديدة عليه، وعجبًا أنها لا تزال تسيطر عليه كل هذه السيطرة...

وعندما وصلت إلى مجلسه جلست مباشرة على وسادة فوق الأرض أمامه، فقال لي بهدوء وترحاب: أهلًا بالمصري الذي يعرف تاريخنا ولا نعرف عنه شيئًا.

نظرت إليه نظرة ارتباك حقيقية ولكني تمالكت نفسي وقلت له بهدوء: مصري الأب والجد، متزوج ولي من الأبناء ثلاثة...، ثم حاولت أن أكون مجاملًا بعض الشيء للتقرب منه فقلت له: «وزوجتي اسمها سلمى أيضًا».

نظر إليَّ أبو العباس وقال: وهل هي ريحانة مصر كما كنت تقول على زوجتي إنها ريحانة قريش؟

أدركت عند هذا الحد أن الرجل ذكي وحاد الفكر، وكيف لا؟! فقد قضى الرجل على دولة الأمويين قضاءً مبرمًا، فتك بهم واحدًا تلو الآخر، والآن أنا

أقف معقود اللسان أمام شاب يصغرني بقرابة خمس عشرة سنة، ولا أدري ماذا أفعل لمواجهة هذا الطوفان من الذكاء.

قال الرجل وهو يبتسم: علَّك لا تريد أن تتكلم عن زوجتك، فهلا أخبرتني عن جواري مصر ونسائها يا رجل؟

قلت له: والله يا أمير المؤمنين إن حالي من حالك، فهي مثل «أم سلمة» لا مجال للنساء بجوارها، ثم إنني من عصر لا جواريَ فيه ولا شيء، عصر تكون المرأة فيه شريكة الرجل.

ابتسم أبو العباس وقال: ما بال الزمان ينتقص من الرجال!!

فقلت له متداركًا: ولكنه ليس انتقاصًا من الرجال بل تقديمًا للنساء، فلقد نلن من الحقوق ما يجعلهن متساويات يا أمير المؤمنين.

نظر إليَّ الرجل بريبة وعاجلني بسؤال مباغت فقال: هل تكذب علي؟

أنا: لا والله.. لا.. لا أكذب على أولياء الأمور.

الخليفة مستهزئًا والابتسامة على وجهه: لو أنك من المستقبل فقل لي متى وكيف سأموت؟

أنا: لا علم لي إلا ما كتبته الكتب فيك.

الخليفة بحزم: قل ولا تخف.

أنا: ستموت في عاصمة دولتكم هذه يوم الأحد الثالثَ عشرَ من ذي الحجة سنة 136هـ.

أبـو العبـاس مضطربًا: هل تعرف أن هذا معناه أنني سـأموت في غضون أشهر؟! وكيف أموت يا رجل؟

أنا: ستموت مريضًا من أثر الجدري.

أبـو العبـاس: إنك تكـذب حتى أبـوح لك بمـا تريـد أن تسـمـع وكأنـك قسٌّ نصراني يُعترف لـه، ولكن ويحك، فأنا لا أصدقك يا مصري... ولكنـي مقـدر لرغبة أم سـلمة...، ثم انفجر أبو العباس مـن الضحك وقال لحاجبه: إنه يريد أن يعرف مني سري... ثم استدار ورفع حاجبيه وقال: والله لأكونن صادقًا معك يا رجل.

أنـا، بهـدوء: كيـف اسـتطعت أن تقـضي عـلى الدولـة الأمويـة يـا أمـير المؤمنين؟

أبو العباس مبتسمًا: لقد بدأنا دعوتنا سرًّا من خلال وجودنا في «الحميمة» بالقـرب مـن مَعْقِل بنـي أميةَ في الشـام، فكنا كالشـوكة في خصرهم وهم لا يعرفون عنا شيئًا، ومن هناك كنا نبعث الرسل ونحرك شبكة رجالنا في سائر الأمصار.

أنـا: ولكـن أخـاك إبراهيم بـن محمد أُلقي القبـض عليه من قبـل الخليفة مروان بن محمد، فقد انكشف سركم في عام 132 هجرية..

أبو العباس بابتسامة: لهذا عقد لي إبراهيم رحمه الله الأمر من بعده، فصرت إلى الكوفـة مع إخـوتي وأعمامي تاركين الرجل في أيـدي كلب بني أمية حتى قتله، ولكنني عجلت بالأمر واتفقت مع أبي مسـلم الخراساني على أن يُعجل

بالحركـة حتى تزيد فـرص النصر، خاصةً أنني كنت أخشـى بأس مروان بن محمد، وبعض رجاله.

أنا: ولماذا عقد لك أنت وليس لأبي جعفر الذي يكبرك؟

أبـو العبـاس ضاحـكًا: له في ذلك حِكَـم، ولكن أخـي رأى فيَّ من الجَلَد والقدرة على الإمارة أكثر من أخي أبي جعفر المنصور.

أنا: ماذا كانت خطتك بعد ذلك؟

أبـو العباس: لقد قامت الدعـوة في حقيقة الأمر على كتفي أخي إبراهيم، فهو الذي كان يحرك أبا مسلم الخراساني في خراسان وغيره من الدعاة لنا آل البيت.

أنا: ولماذا خراسان؟

أبـو العباس: لأنها بعيدة عن نفـوذ الأمويين الطاغي، كما أنها كانت تموج بالفتـن ضد الأمويين وكانوا كارهين لهم، فعرفنا أن هذه هي الفرصة، وأنهم على استعداد لعداء بني الحكم.

أنـا، مبتسـمًا بخبث: سـأتحدث عن طبيعة الدعـوة فيما بعـد، فلننظر الآن صوب الكوفة... لماذا تتغافل ذكر «أبي سلمة الخلال»؟

أبـو العبـاس بابتسـامة غـير مريحـة: الرجـل لـه مكانتـه، ولكنه غـدر يا مصري....

استدرت ونظرت نظرة ثاقبة لهذا الداهية الذي ملك العالم الإسلامـي في

ســن مبكرة، وقلـت لـه بهدوء: يا أمير المؤمنين، لا أجـد بدًّا من الخوض في خطبتكم الشهيرة في المسجد عند توليكم أمور المؤمنين.

أبو العباس ضاحكًا: أيها الشاب أراك ماضيًا في طريق تصعب العودة منه، وليتك تدرك أنك مصري، وأهلك ما كانوا من أنصـارنا ولا من شيعتنا، ثم قال مبتسـمًا: «ولكني أمنتك، فلا تسترسـلن فيما تكون عواقبـه وخيمة». ثم ضحك.

أنا: وهل تخشى سؤالي؟

أبو العباس ضاحكًا: ما خشيت مروان بن محمد لأخشـاك... وأنت بين يدي، وسيفي قاب قوسين أو أدنى من عنقك... ولكني أرى في لسانك شيئًا يعجبني، وفي جيبي ما سيملأ خزائنك.

أنا: إن كنت سفاحًا فأغدق عليَّ بالإجابات، فلا حاجة لي بمالك.

السفاح ضاحكًا: ليكن هذا مقضيًّا.

أنا: لقد قرأت خطابك من منبر مسجد الكوفة مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ واستوقفتني عبـارات عديـدة، أولاها قولـك في وصف الخلفاء الراشـدين الذيـن تولوا الخلافـة من بعد الرسـول ﷺ... قام بذلك الأمر مـن بعده أصحابه وأمرهم شـورى بينهم، فعدلـوا فيها ووضعوها مواضعهـا وأعطوها أهلها وخرجوا خماصًا (جائعين) منها.

السـفاح ضاحـكًا: لقـد حذرتك يـا رجـل... أراكَ ماضيًا في سـبيل غير سبيلك.

أنا: إذن أنت تقبل حكم الخلفاء الراشدين؟

السفاح: بكل تأكيد.

أنا: ولكنهم ليسوا من آل البيت... وليسوا منكم في شيء.

السفاح ضاحكًا: ولكني قلت إن أمرهم كان شورى بينهم، أي أن هذا كان خيار المسلمين الأجلاء والرسول ﷺ مسجى قد انتقل إلى مثواه.

أنا: فلتكن كذلك الآن... لماذا لا تترك للمسلمين اختيار القيادة على نفس نهج الصحابة بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام؟

السفاح مبتسمًا: غير جائز يا رجل... ففي ذلك الزمن كان الخلفاء من المبشرين بالجنة، وهذا تفويض من المولى عز وجل لهم بالحكم، ولكنا الآن أمام مسئوليتنا في بيعة أُولي الأمر منا، ومن ثَمَّ يكون أهل البيت أولى من غيرهم، فنحن دمه وامتداده وشيعته.

أنا: اسمح لي بالعودة إلى موضوع آخر.. لقد قلت في الخطبة: ثم وثب بنو حرب ومروان (يقصد أولاد مروان بن الحكم بعد انتهاء سلالة يزيد ابن معاوية)، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها، ولكنك تفعل نفس الشيء!

السفاح بغير ارتياح: نحن لسنا بني أمية... فلقد أتت إلينا بقضاء الله وقدره، ولا راد لأمر الله يا رجل.

أنا مقاطعًا: وإنما أتت لبني أمية بمشيئة الله أيضًا.

أبـو العبـاس بلهجة من نفد صـبره: ولكننا أهل البيت يـا رجل... وهذا عهد الله لنا...

أنا: ولكن كثيرٌ من الشيعة يرون أن سلالة علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسـلام هم المقصودون في الآية التي اقتبسـتها في خطبك والتي تقول: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

أبـو العبـاس منفعـلًا: اصمت وإلا قطعت رأسـك... مـا بالك لا تدرك قيمتنـا؟ فنحـن آل البيـت يا رجل، ومنهـم جدي الأكبر، عم الرسـول ﷺ؛ العباس بن عبد المطلب.

أنا: ولكنكم هاشـميون من بني عمومة الرسـول عليه الصلاة والسلام، ولكـن الفريق الآخر من صلب الرسـول ﷺ وسـلالته، فهـم أولى به لو أننا تعاملنا بهذا المنطق.

أبـو العبـاس بابتسـامة مكـر: كفى من بنـي هاشـم فريق، فـلا تفرق بين الهاشميين، فلقد جمعنا الله، فلا تفرقنا يا رجل، فنحن أولى بهذا الأمر من غيرنا من بطون بني هاشم... ولكن لبني عمومتنا عندنا كل حب وجزيل عطاء.

أنا: ولكن لو طبقنا هذه الشرعية فعليك أن تترك الأمر للإمام المرشح من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام... وهو الآن وَفْقًا لرأي الفرق الشيعية الكبرى محمد بن علي الباقر.

السـفاح: لا فرق بين بني العمومـة... الأهم هو الأصلح فيهم وأنهم من بني هاشم، وبالتالي تكون الولاية للأصلح ومن توافق عليه بيعة الأمة.

أنا: قلت إن بني أمية اسـتأثروا بالأمر، فهل تؤمن أنه كان يجب عليهم أن يتركوا الأمر شورى بين المسلمين؟

السفاح ضاحكًا: أيها الرجل... سؤال حق يراد به باطل...

أنا، بنظرة براءة تخفي الخبث: لا أفهم.

السـفاح ضاحكًا: ولكنني أفهم... فلو قلت لك إنهم استأثروا ستقول لي وهل ستستأثرون بالأمر مثلهم؟

أنا بدهاء: وهل ستستأثرون بالأمر مثلهم؟

السـفاح ضاحكًا: ليس اسـتئثارًا يا رجل، فقد بنينا دولتنا على أسنة رماح المؤيديـن، وبشرعية نبينا ونسـبه وبالشـورى بـين الناس، فلقـد أخذنا البيعة برضا منهم، ولن يفسد علينا أمرنا من ليس له بيعة، وتذكر أن الرسول عليه الصلاة والسـلام قال: «مـن مات وليس في رقبته بيعة، مـات ميتة جاهلية»، وهؤلاء هم أهل الجاهلية.

ضحكت وقلت له: والله إن معاوية لم يستطع أن يغلبك.

أبو العباس مبتسمًا: لقد بنى معاوية قوته من خلال جنده الكثيف بالشام، أما نحن فبنيناها بأيدينا، ودعوتنا كانت سرية بينما كانت دعوة معاوية علنية، فقـد فعلنـا ما لم يسـتطع داهيـة العرب فعلـه، فاسـتعنا على قضـاء حوائجنا بالكتمان كما قال جدنا ﷺ.

أنا ضاحكًا: أنت ومعاوية شـخصيتان سياسـيتان بارزتان، فلنقل إنك لا تكرهه، فهل تعلمت منه؟

السفاح ضاحكًا بكل قوته: لو لم تتعلم من خصومك فلن تتعلم يا رجل... ثم قال بخبث: وهل تعلمت أنت منه؟

أنا، مبتسمًا: أعمى القلب والبصيرة هو من لا يتعلم من أخطائه... ثم استطردت قائلًا: يا أمير المؤمنين هل أقص عليك مقولة رجل دولة ألماني من شمال بلاد الروم، اسمه بسمارك؟

السفاح ضاحكًا: لو أنك لم تقل لي من أين أتى الرجل لظننت أنه اسم ناقة من بلاد السند أو عبدًا من بلاد الهند!

أنا: لا .. هو رجل قلما تجود الدول بمثله.. يقول إن الجاهل يتعلم من أخطائه، أما أنا فأتعلم من أخطاء الجهلة.

لم يبد أبو العباس تحمسًا ووضع ابتسامة غير مريحة، ونظر إليَّ نظرة فيها شيء لا يريح، وقال بهدوء: ولماذا تتعلم من الرجل ولا تسعى للتعلم من نبي الله؟

أنا بنوع من التردد: لا أفهم قصدك.

السفاح بحسم: ألم يأتك قول الرسول عليه الصلاة والسلام «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»؟

أنا: أجل سمعته.

السفاح: هذا في نفس السياق والرسول ﷺ كان من قبله بقرون طويلة... ألم تتعلم من هذه المقولة؟ فهو يدعونا عليه الصلاة والسلام إلى أن نتعلم من الخطأ...، وليس أغرب ممن لا يتعلم من النبي ﷺ ويسعى للروم ليتعلم منهم!

نظرت إلى عيني السفاح ووجهه المتشدد، ثم وجدتني غير قادر على النطق بشيء، فأنا لم أقصد التخلي عما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا، ولكنني أردت فقط أن أؤكد المعنى من خلال خبرات الآخرين... لم يدم تفكيري طويلًا، فقد انفرجت أسارير أبي العباس وقال وهو يضحك ضحكًا حارًّا: لقد خدعتك فأوحيت لك رفضي لمقولتك... ولكنني كنت أعتقد أنك أكثر تماسكًا وصلابة مما أنت عليه. ثم انفجر واستكمل ضحكه، وقال بنشوة انتصار تملأ عينيه: أكمل وسل ما شئت يا رجل، فلا خوف منك.

وجدتني أشعر بضيق شديد، فقد طرحني الرجل أرضًا، وشعرت بالغضب يتملكني، فقلت له دون تفكير: لقد قتلت كل من أتى بك إلى الحكم... ألا تشعر بالخزي والعار؟! أوليس هذا رجسًا أراد الله أن يزيله عن آل البيت، فهل القتل من شيم آل النبي ﷺ؟!

السفاح مبتسمًا: إنك لست ذكيًّا كما تصورت يا رجل... لقد أردت الانتقام منا؛ لأننا أشعرناك بضآلتك!

أنا متحديًا: ليكن ولكنك قتلت كل من أتى بك!

السفاح مبتسمًا: لقد فعلت ما فعلت رفعةً لدولتنا وحمايةً لديننا ومنعًا للافتتان بين الناس...

أنا: لنتحدث عن أبي مسلم الخراساني...

السفاح بكل ارتياح: وهل مات الرجل؟

أنا: سيقتله أبو جعفر المنصور من بعدك.. أليس هذا هو الرجل الذي

بدأ الدعوة لكم في خراسـان؟ أليس هو مـن أنهى كل فرص مروان بن محمد لنجدة الدولة الأموية؟

السـفاح: لا علم لي بهـذا... فالرجل رجلنا... ولكن بـما أنك تعرف كل الأمـور، فدعنـي أصارحـك... إنني أقـول لأخي أبي جعفر إنني لسـت من المحبين للنفوذ المتسع للخراسـاني، ففي إدارة الدول لا تجعلن الأيدي أقوى مـن الرأس، فالرأس يحكم الأيدي وليس العكـس، فلو فعل المنصور ذلك، فهذا تقويم لاعوجاج رأيناه.. ولمسه أخي المنصور أيضًا!

أنا: أليس هو الرجل الذي جمع القاعدة والدعوة لكم في خراسان؟

السـفاح: ولكن المُلك مُلكنا يا رجل... هو ساهم في ذلك، فلا تجعل منه بطلًا ومنا أتباعًا.

أنا: ولكن هذا نمط لسلوككم مع كل من وقف معكـم أو هدد سلطانكم!

السفاح: أعرف ما تقصد يا رجل.. أبو سلمة الخلال؟ تريد الحديث عنه، أليس كذلك؟

أنا: أنت تقرأ الغيب يا أمير المؤمنين.

نظر السـفاح إلى حاجبـه وقال بلغة غير مريحـة: داووا معدته... فإن مثله أكل فكرًا لا يهضمه.

أنا بضيق: ماذا تقصد يا أمير المؤمنين؟!

السفاح مبتسمًا: طلبت لك مأكلًا... لا عليك.

لقد بدأت أشعر أن الرجل يستعد للغدر بي، ولكن الفضول كان أقوى، فقلت له بهدوء: لماذا قتلته؟

السفاح: الدعوة دعوتنا، ورثها هو عن والد زوجته على ما أظن، وكان المعروف أنها لبني العباس من بني هاشم، ولكني فوجئت عند قدومي من الحميمة إلى الكوفة أن الرجل عرض الأمر على عدد من العلويين؛ منهم جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن، ونحن بالكوفة نلتقي جيوش أبي مسلم الخراساني القادمة من خراسان، ولولا أن سأل أحدهم علينا لكان مصيرنا في علم الغيب.

أنا: ولكن أبا سلمة جاء إليك..

السفاح مقاطعًا: نعم جاء إليَّ وقبل يدي وبايعني.

أنا: ألم تقل له عذرناك يا أبا سلمة، ...وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغـــ....

السفاح مقاطعًا: نعم.. نعم... نعم.. مغفورة... ها أنا قد أكملتها لك.

أنا: إذن، لماذا قتلته؟

السفاح: لأن بناء الدولة يتطلب ألا تغفر الغدر يا رجل... ألا تعلم هذا؟ ثم إنني لم أقتله.

أنا: بل كان صديقك الخراساني من دبر ذلك بعلمك طبعًا... فهلا قصصت علي ما فعلت مع بطل الأمويين يزيد بن عمر بن هبيرة؟

السفاح مبتسماً: هلا قلت لي ما كتبه التاريخ في هذا الرجل؟

أنا: كتب فيه أنك أمرت أخاك المنصور بقتله بعد أن أمنته وأسرته في واسط.

السفاح: هل تريد الحقيقة؟

أنا: نعم.

نظر إليَّ السفاح نظرة إرهاب وقال: وهل يستطيع عقلك تحمل أمانة الحقيقة يا رجل؟

أنا بتردد: نعم يستطيع.

السفاح: نعم أمرت بقتله، فكيف أدع بطلًا قويًا مثل ابن هبيرة على قيد الحياة وقلبه لسادته من بني أمية؟

أنا: لأنك تحفظ عهدك؟

السفاح منفعلًا بأعلى صوته: وهل حفظ أحد عهد أخي إبراهيم وهو صريع في سجن مروان بن محمد ورجاله من أمثال ابن هبيرة؟ ألم يكن الرجل أحد دعائم حكم بني أمية؟ أليس هو من سعى للمقاومة حتى بعد أن قُطع رأس ابن محمد؟ وتريده حيًا حتى يقضي علينا؟! ألا تدرك يا أعمى القلب أننا أقمنا دعوتنا سرًا خوفًا من قطع الرقاب؟!

أنا: هلا شرحت لي سبب نقمة دولتكم خاصة فيما بعد على الشيعة والخوارج؟

السفاح: أنا لم آمر بقتلهم، ولكني أتوقع الصدام معهم في أقرب وقت.

أنا: لماذا؟

السفاح: لأن الخوارج اسمهم يدل على سلوكهم، هؤلاء يا رجل لا يقبلون بأحد حتى لو كان منهم، فنحن على خلاف معهم وهم لن يرضوا عنا، فهم يعشقون الدم والتطرف، وهم لن يستجيبوا إلا للسيف.

أنا: والشيعة؟

السفاح مبتسماً: إنهم مشرذمون مختلفون... بعضهم يريد سلالة محددة، ومنهم من يرى غير ذلك، أما نحن فنرى أن الحكم لآل البيت ولا نفرق بين أحد من آل البيت، فالله سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ لم يحدد من يؤمر علينا.

أنا مباغتًا: لماذا سُميت بالسفاح؟ هل لأنك تقتل كثيرًا أم لأنك جزيل العطاء؟

أبو العباس يضحك ويتمالك نفسه ويشرب جرعة ماء: لأنني جزيل العطاء... لم لا تكمل خطبة الكوفة؟! ألا تعلم أنني أنهيتها بقولي: «أنا السفاح المبيح... والثائر المبيد»، وذلك لأنني كثير العطاء.

أنا: ولماذا لم تسع لتغيير المفهوم الدارج عند الرعية؟

السفاح ضاحكًا: لا حاجة لي بهذا، ففي عالم الحكم قد يكون مفيدًا أن تعرف عنك الرعية الأمرين معًا، أنك لا تتورع عن القتل وأنك جزيل العطاء في نفس الوقت.

أنا: عندنا في مصر نقول «من لا يملك يعطي من لا يستحق».

أبو العباس بابتسامة تخفي كراهية بدأت تتبلور: ولكني أملك وأقرر من يستحق، ولو استحققت لأعطيناك الكثير.

أنا: لا حاجة لي في مالك يا أيها الملك.

أبو العباس بهدوء: بل تقصد أمير المؤمنين.

أنا: لماذا قتلت المئات بعد أن دان لك المُلك؟

أبو العباس: أنا لم أقتل، ولكني سمحت بالقتل، وهو أمر طبيعي عندما تتبدل سنن الدول وقيادتها، فلو تركت الأمر لبني أمية للهروب لأقاموا الفتن علينا ولأصبحوا شوكة في خصرنا كما كنا شوكة في خصرهم.... وكفى هروب عبد الرحمن الداخل والذي بدأ يسمي نفسه صقر قريش في الأندلس...

أنا: ولكن قتلك كان كثيرًا يا أمير.

أبو العباس: إنها سُنة الحياة، فهل نسيت ما فعله بنا بنو أمية وكيف نكلوا بالحسن والحسين وآل البيت؟! هل نسيت كيف ضربوا الكعبة وحاصروا بيت وقبر الرسول ﷺ؟! هل نسيت معاركهم ضد الشيعة والخوارج في الكوفة والبصرة؟ فهل من تذكرة يا رجل؟

أنا: ولكن كان يمكنك أن تسيطر دون إراقة الدماء.

أبو العباس ضاحكًا: كيف يكون هذا الأمر؟ فنحن لا نعرف غير هذا يا رجل، أما وقد تجرعنا العذاب ألوانًا فلا تطلب منا الحلم أصنافًا.

أنا: ولكنك أسرفت في القتل!

أبو العباس مبتسمًا: لقد قال لي شاعر ذات مرة:

جرد السيف وارفع العفو حتى

لا ترى فوق ظهرها أمويًا

وقد قبلت النصيحة.

أنا: ولكن يبدو لي أن هناك مشكلة في التعامل معكم... لقد رأيت وسمعت وقرأت عن حلمكم، ولكني سمعت وقرأت أيضًا عن عنفكم وسفككم للدماء، فبأيهما أقرب إليك يا خليفة المسلمين؟

أبو العباس مبتسمًا: كما تراني الآن، فأنا من أنا، أصبح على ما تركتني عليه بالأمس، للحلم دواعٍ ولأمور الحكم نواهٍ، فلا تخلطن بين الأمرين.

أنا: لماذا لا تذكر كتب التاريخ مقولة لك مثل مقولة معاوية أو شعرة معاوية...؟

أبو العباس والغيظ يتملكه: لك أن تختار من هذه الجمل لتوردها عني «أنا السفاح المبيح... والثائر المبيد» أو «أنا الغدار المبيد».

وعلى وجه السرعة نظر السفاح حوله نظرة بدأ على أثرها يتجمع حولنا رجاله في القصر، فقال لي: أية مقولة تظنني أطبقها عليك؟

نظرت إلى الرجل نظرة لا تخلو من الخوف، وقلت له: أراك تريد قتلي، ولكنك تخشى من التي هي في ذهني، والتي أعرف أنها تسمعنا، فلا أظنك تقتلني.

ضحك أبو العباس وقال: لقد عرفت من السر أكثره، ومن النوايا ما أكتمه، وحاجة الدولة لقبرك أكثر منها لحياتك، ولكني السفاح ... أنا السفاح، سأنعم عليك بالحياة يا رجل، على ألا تبوح بمقولة مني.

وقفت وهممت بالانصراف وأنا لا أعلم أين الطريق، فقد شعرت أن الله نجاني من مصير أبي سلمة الخَلَّال وابن هبيرة، فهرولت للخروج من القصر دون أن أنظر خلفي للحظة، وعلى مسافة من القصر وبعيدًا عن رجاله وقفت ألتقط أنفاسي فإذا بإحدى الجواري تقول لي: يا أيها الأمير إن مولاتي أم سلمة تقرئك السلام، وقد وهبتني لك وسوف أتبعك أينما ذهبت.

وقفت متسمرًا مكاني فصدمة الجارية كانت آخر شيء توقعته من هذا اللقاء العاصف، وكانت أكثر مما يمكن لي أن أتحمله، فوقفت أنظر إليها وأنا أنهج من كثرة التعب، وقلت لها بهدوء: حيث أنا ذاهب في عصري لا توجد جَوارٍ حسان.

نظرت الجارية إليَّ باستغراب وقالت: وكيف يقضي الرجال أمسياتهم في مصر في زمنكم؟

قلت لها ضاحكًا: إنهم يقضون ليلهم يستمعون لأحوال البلاد أمام جهاز اسمه التلفاز ينقل لنا الحدث والأحاديث فما أكثر المتكلمين في زمني.

قالت الجارية: أرجوك خذني معك إلى هذا العالم.

نظرت إليها وقلت في شفقة: ليته يمكن يا ابنتي.

قالت الجارية: لو عدت إلى القصر الآن ستهبني أم سلمة إلى أحد رجالات القصر؛ لأنها لا تحب وجود الجواري داخل القصر، فخذني معك، رحمك الله.

ضحكت وقلت لها برفق: اذهبي إلى سيدتك فقد تكون نار أم سلمة أفضل من جنة أم سليم زوجتي.

ثم أطلقت ساقيَّ للريح بعيدًا عن هذا القصر وأصحابه ممن لا طاقة لي بهم.

مترنيخ

مترنيخ

لقد قمت بزيارات متعددة لمدينة ڤيينا النمساوية خلال حياتي؛ أولاها عندما كنت صغيرًا مع والدي، ثم بعد ذلك مرات عديدات، وفي مرة وقفت أمام السفارة الإيطالية بالنمسا ليس إلا للتأمل والتفكر، فهذا المبنى الجميل له سحر لأي دبلوماسي أو سياسي قرأ التاريخ، فهو البيت الذي عاش فيه «كليمنز لوثر فون مترنيخ»، أشهر دبلوماسي في القرن التاسع عشر، ولعل مترنيخ سيظل من أفضل السياسيين والدبلوماسيين الذين عرفتهم البشرية، كما كان أكثرهم اعتناقًا للفكر المحافظ ومحاربة للفكر الحر... تناقض عجيب في هذه الشخصية الغريبة، فهذا الرجل كان يخشاه كل المفاوضين والساسة الأوروبيين؛ لأنه كان على دراية كاملة بقدراته التي تفوق قدراتهم التفاوضية، وهذا الرجل بملكاته السياسية والدبلوماسية يصطفى ليكون ضمن نخبة السياسيين من أمثال معاوية بن أبي سفيان وأبي العباس وتشرشل وغيرهم...

وقفت أتأمل هذا البيت بهدوء في الجو البارد الذي اتسمت به ڤيينا في شهر مارس، وعند مرحلة ما شعرت بأن شخصية مترنيخ تتجسد أمامي وهو يخرج من باب منزله، فها هي هذه الشخصية تقف أمامي، ها هو مترنيخ...

الشخص الذي سيطر على مجريات السياسة الأوروبية لقرابة خمسين عامًا من الزمان، إنه هو بحق... إنني أقف أمامه، هأنذا أتخيله أمامي، فها هو الرجل الذي طالما تمنيت أن أملك مواهبه وقدراته وأبتعد عن آرائه وأخلاقياته، إنني أمام هذه الشخصية العظيمة بالفعل، ها هو مترنيخ يستعد ليركب عربته التي يجرها حصانان وهو في زيه الأنيق الذي عرف عنه.

لقد عاد بي التاريخ قرابة قرن ونصف القرن من الزمان، فهأنذا أرى أو أتخيل أني أرى مترنيخ أمامي، رجل طويل نحيف ومنخاره ممتد، فم ضيق يعكس واقعه، فقد كان قليل الكلام ولا ينطق إلا الكلمات الثاقبة الحاسمة، يميل إلى الانحناء بعض الشيء، وشعره خفيف بعض الشيء، ووجدت نفسي أسعى لدخول عربته ولكن رجال العربة الخاصة به منعوني معتقدين أنني من الثوار الذين يريدون قتل الرجل؛ لأنه حارب الفكر الحر قبل ثورة 1848 التي أطاحت به، فسعى الحاجب على الفور لمنعي من الركوب، فقلت لمترنيخ بلغة فرنسية ركيكة بعض الشيء: هل تعتزل السياسة وترحل؟، فنظر إليّ الرجل باستغراب قائلًا: وكيف عرفت أنني أستعد للرحيل؟ ثم قال لي بلغة فرنسية متقنة: اصعد واجلس، فإني أريد التحدث معك.

ركبت العربة وجلست في مواجهته وبدأت أتأمل الرجل بهدوء شديد، فباغتني بقوله: كيف عرفت أنني أنوي الاعتزال السياسي... فأنا بالفعل أستعد للسفر لرحلة في بلجيكا وهولندا وبريطانيا؛ فأنا غير مرغوب فيَّ هنا! هل تصدق؟! بعد كل ما صنعته للدولة التي أنتمي إليها!! ثم نظر متأثرًا بشموخ وقال: «هذه هي السياسة... في عام 1814 نظرت إليَّ ڤيينا على

أنني المنقذ... فكان ملوك وأمراء أوروبا يعتقدون أنني أعظم سياسي... أما اليوم... أما اليوم فهم يطردونني بأفعالهم وألسنتهم، ولعناتهم تنصب عليَّ من نظراتهم... أنا من كنت مستشار الدولة النمساوية المجرية، الآن لا أستطيع أن أسافر مرتاحًا في شبه منفى طوعي!

نظرت إلى الرجل في حسرة، وقلت له بهدوء شديد بفرنسيتي التي ليست أهلًا لفرنسيته وإتقانه لها: إذا ما كان في كلامي أي راحة فأنت ستظل نجمًا سياسيًّا ودبلوماسيًّا لامعًا...، ثم قلت له مبتسمًا: هل أقول لك سرًّا؟

ضحك مترنيخ وقال: قل... فأنت من يتحدث معي اليوم بعد أن اختفى كل الأصدقاء...

أنا مبتسمًا: لقد كتبت عنك بحثًا كبيرًا في مقتبل عمري وصفتك فيه بأنك قد تكون أعظم دبلوماسي عرفه العالم، رغم أنني لست مقتنعًا بعقيدتك البتة وأعارضها شكلًا وموضوعًا.

مترنيخ ينظر إليَّ نظرة شك: أشكرك... ولكن..

أيقنت أن الرجل يعتقد أنني أواسيه في كسرته أو حسرته، فبادرته بالقول: لست وحدي في هذا الأمر فهناك الكثيرون ممن يقولون نفس الشيء عنك في كتبهم التاريخية.

نظر إليَّ مترنيخ باستغراب وقال: أنت من المستقبل؟

قلت بابتسامة رفق: نعم، ولكن الأهم هو أنت الآن... فلا تحزن، فالتاريخ سينصف قدراتك ويلعن معتقداتك...

مترنيخ: من أين أنت؟

أنا: من مصر يا سيدي.

انفجر مترنيخ ضاحكًا وقال: يا إلهي إذن أنا هو... فلقد سعيت ولعبت لعبة كبيرة للقضاء على والي مصر محمد علي باشا منذ سنوات قليلة، هل تعرف ذلك؟

أنا: نعم أنت تلعب لمصلحتك.

مترنيخ: إنها السياسة، فأنا لا أكره مصر... إطلاقًا... ولكني أحب مصالح بلادي وهذه سنتي... هل يكرهني المصريون لأنني قلمت أظافر محمد علي؟

أنا: أغلب المصريين لا يعرفون دورك يا عزيزي في مؤتمر «برودلاند» قبيل معاهدة لندن عام 1840 أو أنك شاركت بقوات لضرب محمد علي، ولكنني أعددت كتابًا أوضحت فيه دورك غير المؤيد لقضية وطني.

مترنيخ: ومع ذلك لا تكرهني؟

أنا: في السياسة لا مجال للحب أو الكراهية، ولكن أنا أتعلم منك ومن قدراتك وتحركاتك الدبلوماسية والفكرية حتى وإن كنت غير مقتنع بعقيدتك السياسية، وأنأى بنفسي عن تقييمك الأخلاقي فهذا ليس من شأني...

مترنيخ: عجيب أنت! فالناس هنا يريدون رقبتي لمعتقداتي ضد الثورة.

أنا ضاحكًا: لقد جثمت على أنفاسهم قرابة تسع وثلاثين سنة يا سيد... قد يكون في البُعد بعض المحبة كما نقول في مصر.

مترنيخ: ولكن قل لبني بلدك إنني لم أقصد تدمير حلمكم بدولة مركزية قوية قاعدتها مصر... فقد كنت أقرأ كل رسائل قنصلنا في القاهرة... كلها بلا استثناء، وأذكر أنه كتب لي في إحدى المرات يقول إن العالم العربي على وشك الاستيقاظ من نومه العميق، وطبعًا هذا معناه أن مصر ستقضي على الدولة العثمانية، ولو فعلت ذلك لانكسر توازن القوى في القارة الأوروبية، ولوجدت روسيا تسعى لملء الفراغ فتنشر جنودها فتكون شوكة في خصري...

أنا: ولكنك دمرت حلم دولة كان بإمكانها أن تنافس كل الدول الأوروبية لو تُرك لها المجال؟

مترنيخ ضاحكًا: السياسة هي ألا تضيف منافسًا لك يا عزيزي... وأنا لا أحسبها بالمشاعر... فمصر كانت خطرًا فقلمنا أظافرها والموضوع انتهى... فلا مجال للعواطف.. ماذا تعمل أيها الرجل؟

أنا، بابتسامة: أنا دبلوماسي يا سيد أهل الدبلوماسية.

انفجر مترنيخ ضاحكًا وقال: أنت تمزح أليس كذلك؟

أنا: لا مزاح في وظيفة... أنا دبلوماسي.

مترنيخ: أقترح عليك أن تتعلم مني أن ترسل قلبك لقبره مبكرًا على أن يلحق به جسدك بعد أن تزهق روحك... فلو استمر قلبك يؤثر عليك فستضيع مصالح مصر في يديك... الحب للأفراد والمصلحة للدول، ألم تتعلم هذا؟

أنا، بهدوء: أنا في طريقي للتعلم منك يا سيد الدبلوماسية، ولكن كيف بدأ مشوارك إلى أن أصبحت وزيرًا للخارجية ثم مستشارًا؛ أي ما يوازي رئيس وزراء؟

مترنيخ: لقد تجرعت الدبلوماسية وأنا مع والدي، والذي كان أيضًا سفيرًا لبلاده، فعرفت الحياة والتفاوض والتعامل مع الجنسيات المختلفة على توجهاتها كافة...

ضحكت كثيرًا، فقاطعني وقال بخبث شديد: وهل كان والدك أيضًا دبلوماسيًا؟

ابتسمت وقلت: نعم!

مترنيخ: ممتاز ولكنك لن تسير على خطواتي لأنك لا تزال تعلق قلبك في صدرك، ثم قال ضاحكًا: إذن كانت فرصة عظيمة أن يعينك في السلك الدبلوماسي..

قلت له بابتسامة: لا لا يا سيد مترنيخ... نحن لا نعمل هكذا... فنحن ندخل امتحانات ممتدة على مدار أيام وأشهر، كما أنني دخلت السلك الدبلوماسي بعد وفاته بسبع سنوات.

مترنيخ: ممتاز.. كان يجب أن أفعل ذلك في السلك الدبلوماسي عندنا، ولكن هذا قد يجعل للعامة دورًا في صناعة الدبلوماسية وهذا غير مقبول.

أنا: في زمنك أنت... ولكن في زمني، هذا حق لكل مواطن، ولنا من الزملاء من كان أقل حظًا من آخرين وهم الآن دبلوماسيون محترمون للغاية وأصحاب رؤى.

مترنيخ: لا أعتقد أن هذا مناسب لبلادي...

أنا: وكيف تمت ترقيتك بهذه السرعة أيها الأمير؟

مترنيخ مبتسمًا: لأنني كنت نابغة في مجالي، وعرفت كيف أتقن لعبة الدبلوماسية... فأغلب الناس ينظر إليها على أنها مهنة يمكن أن يتقنها أي شخص، ولكنها مهنة معقدة للغاية، فأنت تلعب في كل اتجاه وتحاصر عدوك وتناطح خصمك وتحترس من صديقك، فهو اليوم صديق وفي الغد قد يكون العدو، وإذا لم تدرك هذه المخاطر فاخرج من اللعبة.

أنا: ولكنك برعت فيها بشكل كبير منذ أن كنت سفيرًا لبلادك في بروسيا (ألمانيا).

مترنيخ: وظيفتي أن أُظْهِر دولتي على أنها أقوى دولة، حتى لو لم تكن كذلك، كما أن ضعفي ليس معناه قلة حيلتي، فالضعف يجعلني أبني التحالفات وأقودها فتأتيني قوة دفع الآخرين لأنفخ بها في أشرعتي في شكل مصالح مشتركة، وهذه هي أصعب مهمة لأي دبلوماسي.. كيف تبني التحالف وتحافظ عليه..

أنا: قبيل الخوض في هذا، لماذا لم تدرك بخبرتك أن الفكر الحر غالبًا ما سيطغى على كل شيء، فأنت خرجت عن سنة التاريخ ولم تدرك أن عجلة التاريخ قد تحركت وأن السياسة المحافظة ومحاولة إبقاء الملوك بمفاهيم الحقوق المطلقة حتمًا ستكون إلى زوال.

قاطعني مترنيخ قائلًا: وما الحتمية في ذلك... أولم تمش البشرية على السياسة المحافظة منذ بَدْءِ الخليقة؟! لماذا تغيرت الآن؟ ثم ضحك قائلًا: لعل سبب ذلك هو حظي العسر.

أنا: ولكن الدنيا تغيرت من حولك، لقد بدأت بالثورة الإنجليزية ثم انتقلت إلى أوروبا من خلال الثورة الفرنسية... فكان من الطبيعي أن تبدأ أوروبا ربيعها الديمقراطي، فالاستبداد كان حتمًا سيزول يا سيد مترنيخ، ولكنك راهنت على عكس ذلك.

مترنيخ: لم أراهن بالشكل الذي تفهمه.. لم أراهن.. ففي مجال السياسة الرهان لا يكون إلا بدراسة وإتقان... وعندما كنت أراهن في الماضي كنت أضع الخطوط الدفاعية لي...

أنا: ولكنك صممت على اتباع سياسة محافظة تهدف لدعم القوة المركزية للدولة على حساب الشعب والحريات.

ضحك مترنيخ وقال: أنا رجل سياسي أضع سياستي كمستشار للدولة النمساوية المجرية من واقع هذه الدولة، وليس من واقع قناعات الشعوب يا عزيزي...

أنا: وهذه حجة كل ديكتاتور فاسد يا سيد مترنيخ.

مترنيخ: لا يا سيدي... فلو نظرت لخريطة الدولة النمساوية-المجرية التي كنت أدير شئونها لوجدت أنها تتكون من مجموعة عرقيات كبيرة وكل إقليم يتحدث لغة مختلفة عن الآخر... لو عملت بنصيحتك وسعيت لنشر الفكر الحر لانكسرت الدولة وتهتكت تمامًا، ولأصبحت الدولة بضعة كيلومترات مربعة، وهذا ضد السياسة...هل فهمت؟

أنا: ولكنها بالفعل ستتفتت تمامًا يا سيد مترنيخ.

مترنيخ: كيف سيحدث ذلك؟

أنا: ستنتهي دولتكم مع الحرب العالمية الأولى في عام 1918 وتتفتت إلى دويلات مختلفة تُبنى على مدار الوقت على أسس الدولة القومية الحديثة، ثم تبدأ مرحلة القومية الأوروبية ممثلة في الاتحاد الأوروبي.

مترنيخ مذهولًا: قومية أوروبية!! لقد حاربت أوروبا نفسها حتى أنهكتها... كيف تم هذا يا رجل؟! ثم نظر مهمومًا وقال: إذن فسياستي فشلت؟

أنا: كان لابد أن تفشل يا عزيزي، فدولتكم كانت مبنية على زواج الجنسيات المختلفة بالإكراه.

مترنيخ: لا، كان هناك اقتناع بمركزية الكنيسة الكاثوليكية ومؤسسة الملكية ممثلة في أسرة الهابسبورج... لا يا سيدي فالموضوع أكبر من ذلك.

أنا: لا... إنك في المراحل الأولى لنهاية حلمك الذي عشت تدافع عنه طيلة عمرك... فلا تحزن، فلقد وقف هذا الحلم ضد التيار، ولكن بلادك ستعتنق حلمًا جديدًا كما شرحت لك، حلمًا مبنيًا على التعاون والود والحكم المشترك مع الدول الأوروبية الأخرى... ولكن قبل ذلك هل لي أن أشبع فضولي عنك وعن خلفيتك يا أمير الدبلوماسية؟

مترنيخ ضاحكًا: إنك تواسيني في صدمتي ولكن أكمل هذا النهج... على كل حال فأنا عينت سفيرًا في بروسيا، كما قلت لك، ثم بدأت ألفت الأنظار لقدراتي إلى أن تم تعييني وزيرًا للخارجية، وبعدها صرت مستشارًا للدولة ككل؛ أي مثل رئيس الوزراء في بريطانيا.

أنـا: لقد توليتَ مقاليد منصبـك والحالة النمسـاوية حرجة... فالجيوش الفرنسـية تسـتعد لغزو أوروبا، فكيف تعاملت مع نابليون بونابرت وفرنسا الثورية؟!

مترنيـخ: نابليون كان شـخصًا غير جدير بالثقـة، ولا يمكن الوثوق فيه، وكان عاقـدًا العـزم على كسر كل القـوى الأوروبية، وقـد أدركت ذلك منذ البداية، ولكن جيوشـنا تأخرت في ذلك، فكانت معركة «أوسترلتز» المخيفة عـام 1805م درسًـا قاسـيًا لنـا حيث هزمنـا نابليـون هزيمـة سـاحقة راح ضحيتهـا عـشرات الآلاف وانكسرت شـوكة بلادي تحت وطـأة الاحتلال الفرنسي، فكان لابد من البحث عن وسيلة أخرى لتهدئة الأوضاع مع فرنسا واستيعابها، وكما يقول الإنجليز: «عش حتى تحارب في يوم آخر».

أنا ضاحكًا: ولهذا سعيت...

مترنيخ مقاطعًا وهو يضحك بكل قوة: بالضبط يا عزيزي... بالضبط... «جوِّزناه» يا عزيزي... زوجناه من ماري لويز ابنة الإمبراطور... .

أنا: كيف فعلتها والرجل كانت له علاقات نسـائية عديدة ... مثلك على ما أعتقد؟!

مترنيخ مبتسمًا: النساء يأتين مع السياسة يا عزيزي، كما لو أن هناك رباطًا بينهما... لقد تعاملت مباشرة مع وزير خارجيته المدعو «تاليراند».

أنا: أجل... من أقذر ساسة أوروبا أيها الأمير...

مترنيـخ ضاحـكًا: هـو أقذرهـم ولكنـه أبرعهـم... هل تصـدق أنني ما

خشيت الجلوس مع أحد مثل هذا الرجل؟ عمومًا لقد اتفقنا على «الجوازة» ووافق نابليون.

أنا: لماذا وافق الرجل؟

مترنيخ: لأن لديه مركبات نقص يا عزيزي... فقدرتك على الانتصار العسكري لا تعكس بالضرورة القدرة على الانتصار على شعورك بالنقص... هل تفهم؟ لذلك وافق على أن «يناسب» عائلة الهابسبورج الشهيرة... ويتزوج منها.

أنا: ولكنك كنت تسعى وأنت تزوجه لإقامة التحالف لضرب الرجل.

مترنيخ مبتسمًا: إنك تقول هذا كما لو أنني أجرمت.. هذه السياسة لا أحد يساندني فيها إلا نفسي وقوتي... والزيجة لا تضمن شيئًا، فالطلاق ليس كأيام هنري الثامن بقرار من البابا.

أنا: هل تعرف أن أحدًا قال فيك إنك لعبت بالدبلوماسية لعبًا... كيف فعلت هذا؟! فأنت من أضعف القوى الكبرى في أوروبا، ولكنك تحكمت في السياسة الأوروبية لمدة عقود طويلة، كيف؟!

مترنيخ: يعتقد البعض أن السياسة والدبلوماسية تعكسان إما قوة الدولة وإما ضعفها... وهذا ليس بالضرورة صحيحًا... فالصحيح أن تعرف كيف تلعب لعبة السياسة، كيف تخلق التوازن، كيف تخلق التحالف، كيف ترضي «العبيط» وكيف تناور الذكي، ولو أتقنتَ هذا لأمكنك أن تلعب لعبًا أكبر من حجمك الحقيقي... تأخذ قوة هذا لتوازن وتصادق هذا لتكسر ذاك وهكذا...

أنا: أعطني أمثلة...

مترنيخ ضاحكًا: هُزمت فرنسا، وكما هو معروف بعد كل حرب ضروس وكبيرة لابد من الجلوس على منضدة التفاوض... هذه سنة الحياة السياسية... لذلك سعيت على الفور لدعوة كل ملوك وأمراء أوروبا إلى ڤيينا لترتيب الأوضاع في أوروبا... هل تتخيل أكثر من 55 ملكًا وأميرًا، وكل واحد منهم معه حاشيته وكل حاشية معها نساؤها وعشيقاتها... ناهيك عن الحفلات الممتدة والمصاريف؟!... ولكن هذا ثمن المركزية في العلاقات الدولية... وقد كانت كلمتي هي المسموعة فأنا المضيف يا عزيزي...

أنا: ولكنك تعاملت مع شخصيات عجيبة الشأن في هذا الاجتماع... وزير خارجية بريطانيا «كاسلريه» رجل عملي وذكي جدًّا، مفاوض فرنسا هو «تاليراند» وهو سياسي من الطراز الأول، والقيصر ألكسندر...

قاطعني مترنيخ منزعجًا وقال: كلهم في ناحية وهذا الرجل في ناحية أخرى، فقد كان مخلولًا لا يمكن التعامل معه، فكانت تنتابه موجات من التشدد الديني والشعوذة معتقدًا أنه وسيلة الرب لنشر المسيحية في السياسة الأوروبية... وما ذنبي في التعامل مع مثل هذه الشخصية المريضة، وقد كان يريد أن يتطهر من شبهة المؤامرة على قتل والده؟! ولكن في السياسة أنت لا تختار شركاءك.. فقط عليك التعامل معهم...

أنا: نعم أعرف هذا تمامًا، فقد كان عندنا في العصر الحديث شخص يدعى «القذافي» وكان يمر بنفس التقلبات الغريبة، وكنا نتحمله في مصر.

مترنيخ ضاحكًا: المجنون طرفي كان يستيقظ في الصباح فيقول لي أنا «عايز» اتفاقية دولية على أساس ديني... «عايز» اتفاقية تقول إن كل الساسة في أوروبا يتعاملون مع بعضهم وَفْقًا للمعايير المسيحية...

أنا ضاحكًا: وماذا فعلت؟

مترنيخ ضاحكًا: أعطيت الطفل لعبته، شريطة أن يترك لعب الكبار للكبار يا عزيزي... فقد أعطيت للرجل اتفاقية لا قيمة لها وأسميناها «التحالف المقدس»، وبلع الرجل الطعم وكممناه، ولكن وزير الخارجية الإنجليزي «كاسلريه» كان رجل سياسة ورفض التوقيع على اتفاقية تلزمه بأن يتبع الأخلاق المسيحية، وعندما فاتحته في الأمر قال لي إنها «ورقة شعوذة» لا قيمة لها لأنها تخلط الدين بالسياسة، وعندما قلت له إن هذا لإسكات هذا المارد المجنون صمم الرجل على موقفه، وعلى كل حال فإن الجميع تم حشدهم خلف الاتفاقية لإرضاء هذا المعتوه ليوقعوا عليها ولم يطبق أحد أي فقرة أو حتى فصلة فيها...

أنا: انتهيتَ من اتفاقية ڤيينا وإعادة السياسة إلى سابق عهدها وضربت الفكر الثوري وأعليت صوت الملكية من جديد... هل استفدت من ذلك؟

مترنيخ: يا عزيزي الاستفادة نسبية... فأنا لا أحب الثورات لأنها تخلق الفوضى...

أنا: أو تخلق تغييرًا لمسار الشعوب إلى الأحسن.. ألم تثر أمريكا ضد الحكم الإنجليزي واستقلت؟

مترنيخ: هذه حرب استقلال وليست ثورة....

أنا: وفرنسا؟

مترنيخ: هي تمر من ديكتاتور لديكتاتور! والله أعلم إلى أين ستسير. ثم استدار الرجل في جلسته وقال لي: «أنت تريد برلمانًا يقول لي افعل هذا أو ذاك، أو اجعلني رقيبًا عليك مثلما يحدث في واشنطن!».

أنا: وما الخطأ في ذلك؟

مترنيخ: هؤلاء منتخبون، أما السياسة الخارجية فلها أسرارها ورجالها، ولا مجال لأن تصبح سلعة ليبرالية يتداولها البرلمان ويزج بنفسه فيما لا يعرفه!

أنا: ولكن لابد ممن يتابع عملك أيها الأمير... لابد من توازن بين القوى كما تقول؟

مترنيخ: التوازن في السياسة الخارجية وليس الداخلية... أنا أحدد السياسة الخارجية لبلادي، وليس هؤلاء المنتخبون... فهذه ليست صلاحيتهم...

أنا: ولكن شرعيتهم من الشارع، وهذا يجعل لهم حق الرقابة على الأقل.

مترنيخ متشنجًا: كلام فارغ... أنا الأمير مترنيخ ولا أحد يراقب كيف أُسَيِّر السياسة الخارجية للبلاد... لا أحد يعرف ذلك مثلي!

أنا ضاحكًا: قل هذا لبرلمان الثورة في مصر عام 2012 وسوف تجد ما لا يسرك!

مترنيخ: هل يناقش البرلمان سياستكم الخارجية؟

أنا: نعم... إنها الديمقراطية، ولكن هذا ليس معناه أنه يُسَيِّر السياسة الخارجية.

مترنيخ: ما هذا الكلام؟!

أنا متجاهلًا: لقد كنت قاسيًا على الفكر الحر وحاربته في كل القارة الأوروبية مستخدمًا تحالفاتك الدولية، فكسرت الثورة الإسبانية ومن قبلها الفرنسية... ومن بعدهما..

مترنيخ مقاطعًا: إنها السياسة... كم مرة سأقولها لك! أنا أكون حيث تذهب مصلحة بلادي... المصلحة وليست العاطفة... هل فهمت؟ مصلحة النمسا كانت في الفكر المحافظ؛ فكان لابد من ضرب التيار الليبرالي رغم أنني لست كارهًا له...

أنا: أليس لك قلب؟

مترنيخ ضاحكًا: طبعًا بكل تأكيد؛ في علاقاتي مع أولادي وزوجاتي وصديقاتي من النساء، ولكن في السياسة أنا دفنت قلبي منذ زمن بعيد!

أنا: إن دورك في مرسوم «كارلسباد» - والذي قيد الحريات في ألمانيا - واضح؛ فأنت من ساهم في غلق الصحف والقضاء على الحريات العامة ووقف التظاهر..

مترنيخ: نعم مذنب ... أعترف .. ولكن هذه هي السياسة؛ فأنا لا أتحمل أن يصيب بلادي مرض مثل الحرية أو وباء مثل الديمقراطية، وإلا تفتتت الدولة... وقد أوضحت لك هذا من قبل فهل تريد توقيعًا مني عليه؟

أنا: والله لو كنت من دعاة الحرية والمساواة والإخاء لاختلف الوضع...

مترنيخ: إن حريتي في قوة بلادي...

أنا: لنتناول دورك في القضية المصرية... لماذا ساهمت في ضرب حلم كل المصريين بدولة قوية في جنوب شرق المتوسط؟

مترنيخ: أنت عاطفي للغاية يا رجل... ألم يعلموك في مدرسة الدبلوماسية في بلادكم ألا تدخل مشاعرك الخاصة في عملك؟

عند هذا الحد شعرت بأنني قد وصلت إلى آخر ما يمكن تحمله فقلت له باستفزاز: على الأقل علموني أن أعرف متى أتوقف قبل أن أطرد وأهان لضعف بصري التاريخي وبصيرتي السياسية؟

مترنيخ بانفعال غير معهود: هل تُلمح إلى ثورة الشعب ضدي وعزلي؟

أنا: كلٌّ وَفْقَ ما يفهمه... عودة لموقفك من محمد علي مؤسس مصر الحديثة.. كيف نظرت إليه؟

مترنيخ: أنا لم أنظر إلى القضية المصرية على اعتبارها قضية قومية... لا... هي قضية والٍ اسمه محمد علي يريد كسر سيده وهو السلطان العثماني، فهو ضرب على الوتر الحساس لدي... هو ثوري وأنا أكره الثورات...

أنا: ولهذا كرهته؟!

مترنيخ ضاحكًا: لا، لهذا ضربته...

أنا: لماذا ؟

مترنيخ: لأنه كان يريد كسر التوازن الأوروبي الذي شيدته في أوروبا في اتفاقية فيينا عام 1815... هل تتخيل 283 ألف كيلومتر مربع من الأراضي العثمانية في القارة الأوروبية لا سيد لها؟!! لو انتهت الدولة العثمانية

من سيحكم هذه الأراضي؟ روسيا ستتدخل لملء الفراغ، ثم تليها بروسيا (ألمانيا) وأنا لن أقف مكتوف اليدين، ولكنني لا أريد أن أحارب، فماذا أفعل؟! كان لابد أن نضرب مصر...

أنا: وهل نمت مستريحًا بعد ضرب مصر؟

مترنيخ مبتسمًا: نمت سعيدًا للغاية؛ لأني حميت دولتي من صراع وشيك... ثم إنك لو كنت غاضبًا فاذهب وتحدث مع وزير الخارجية البريطاني بالمرستون فهو المايسترو الحقيقي الذي قاد الحرب ضد بلادك.

أنا: ولكنك شاركت أيضًا بقوات في ضرب الجيش المصري في سوريا.

مترنيخ: قوات رمزية... بالمرستون وإنجلترا كانا الأساس، أما أنا فكنت الجناح أو مجرد بعض الريش في الأجنحة الإنجليزية.

أنا: لقد قلت إن قنصلك في القاهرة بعث برسالة قال لك فيها إنه يرى شواهد استفاقة عربية، فهل كان لك تعليق على هذا؟

مترنيخ مبتسمًا: نعم... قلت إنني لا أريد أن يستفيق هؤلاء من نومتهم... فأنتم خطر ونحن سعدنا للغاية بضعف الدولة العثمانية فلا نحتاج لدولة عربية تفسد علينا سياستنا في أوروبا.

أنا باشمئزاز: تمامًا مثل تلميذك «هنري كيسنجر» ورجال البيت الأبيض في إدارة بوش الابن في القرن الواحد والعشرين؟

مترنيخ: من؟

أنا: لا عليك فأنتم كلكم سلالة فكرية وسياسية واحدة.

مترنيخ: إنها المصلحة يا عزيزي... أنت عاطفي وأنا صاحب مصلحتي... في السياسة لا تخلط الاثنتين... هل فهمت؟ ولن أكرر لك هذا الدرس مرة أخرى... لا تخلط مشاعرك بمصلحتك يا رجل، وإلا ضاع الحلم وضاعت فرص تحقيقه. ولكن قل لي من هذا الكيسنجر؟

أنا: لقد كان وزيرًا لخارجية الولايات المتحدة، والتي أصبحت أكبر قوة عظمى في العالم... وهذا الرجل قدم واحدًا من أعظم الكتب في التاريخ والسياسة واسمه «إعادة ترميم العالم: مترنيخ وكاسلريه وقضايا السلام».

عند هذا الحد بدأ الغرور يتملك مترنيخ وقال بصوت يعكس روحًا معنوية عالية: «ماذا قال عني؟».

أنا: لقد كتب فيك أنك من أعظم الدبلوماسيين، وأنك رجل بارع بكل ما تعنيه الكلمة... وأنك أدرت سياسة بلدك كدولة قارية عظمى مقارنة بشكل يعكس عظمة سياسية ورؤية دبلوماسية، كما قال عنك إنك دبلوماسي من الطراز الأول، وقد طبق نظرياتك في التفاوض وتوازن القوى والمصالح بشكل مِهْني عالٍ للغاية.

مترنيخ متأثرًا: وهل يقرأ الناس لكيسنجر هذا؟

أنا: إنه من أعظم الساسة كما قلت لك، ولكننا لا نتفق معه في أخلاقياته خاصة فيما يتعلق بدوره في إدارة سياسة بلاده تجاه مصر خلال حربها عام 1973م مع دولة إسرائيل.

مترنيخ مستفسرًا: إسرائيل! دولة يهودية! أين؟

أنا: في فلسطين.

مترنيخ: والله كنت أتوقع حدوث هذا، ولكن ليس بهذه السرعة!

أنا: إنها السياسة.

مترنيخ: وهل يلعنني المصريون؟

أنا: لا ... لا؛ فأغلبهم لا يعرفون عنك الكثير؛ لأن مناهج التاريخ لدينا متواضعة.

مترنيخ مستغربًا والاستياء على وجهه: أراك تكتب، فهل ستنشر ما أقوله لك؟

أنا: نعم.

مترنيخ: هل ستنصفني؟

أنا: لا، لن أفعل ذلك، ولكني على استعداد لنقل رسالة منك لشعب مصر!

مترنيخ: قل لهم إنني لم أقصد ضرب الدولة المصرية أو المساهمة في ذلك، ولكنها المصلحة السياسية... هذه هي كلمة السر.

أنا: لقد قام الشعب المصري بثورة في عام 2011 فهل لك رأي في ذلك؟

مترنيخ: لقد حاربتُ الثوراتِ والتياراتِ الليبراليةَ؛ لأنني كنت خائفًا

على بلادي من التفكك، ولكن لو أن ثورتكم لم تفعل ذلك في مصر فلا أجد سببًا في معارضتها.

أنا: هل تأذن لي بالنزول من العربة؟

مترنيخ وعلامات القلق تبدو على وجهه: سأسمح لك بالانصراف، ولكن ليس قبل أن تجيب عن سؤالي حول كيف سينظر التاريخ إليَّ.

أنا: بمزيج من الانبهار واللعنات والإعجاب... لعنات لأنك عطلت عجلة التاريخ والحرية، والانبهار لأنك رجل دبلوماسي وسياسي قلما يتكرر في التاريخ البشري، فقدراتك فائقة.

مترنيخ وعلى وجهه علامات الاستغراب: ليس هذا ما تمنيت سماعه... ولكنه ليس بالشيء الذي يؤرقني وأنا أستعد للمغادرة إلى منفاي في هولندا ولندن...

ثم استدار مترنيخ وودعني بنظرة وهو يقول لسائق العربة أن يتوقف إيذانًا منه بأن اللقاء انتهى.

ونزلت ورأيت الرجل النحيف الطويل غير المبتسم ينظر إليَّ ويودعني بنظراته ولا يقول شيئًا، ووجدتني أتأمل أحوال السياسة والسياسيين وأؤكد لنفسي أن دعوة كل سياسي يجب أن تكون «اللهم أحسن ختامنا».

عام
1492 م

عام 1492 م

الزمان كان الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر عام 1492م، والمكان في المدينة الساحلية «بالوس دي لا فرونتيرا» في إسبانيا، وأخذت أنظر إلى المحيط الأطلنطي وأبعاده المترامية على أبعد مرمى لبصري، فالبحر أزرق كما هو، والسماء ملبدة ببعض الغيوم، ورائحة اليود تملأ رئتي، إنه وقت الغروب، ولكنه غروبٌ فريدٌ؛ فهو ليس مثل غروب نهاية أي يوم، ولكنه نهاية سنة من أهم سنوات تاريخ البشرية على الإطلاق، فهي سنة غيرت حياة كل إنسان، سنة غيرتك وغيرتني وغيرت العالم من حولها، فهي بحق قد تمثل غروبًا لنمط حياة وصرْعًا له، ولكنها ميلاد لشيء جديد...

وقفت أتأمل البحر بما يمثله، والدولة وما قدمته، والشعب الإسباني وما كان ينتظره، إلى أن رأيتها وهي تستعد لتلفظ آخر أنفاس عمرها القصير، فالباقي على لحظة موتها ساعات معدودات، فلم أتمالك دموعي وهي تسيل، فكيف ينقضي هذا العام دون أن أعرف خباياه وأحدثه عما جاد به في الدنيا؟!

وكأن القدر يلطف بمشاعري فتتنهد السنة العجوز بقولها: لم أعرف أحدًا

سـعى للحديث معي إلا أنت... فالـكل يريد أن يعرف ماذا حدث في الزمن الذي طويته، ولكن أحدًا لم يشأ الكلام معي.

نظرت حولي فلم أر السـنة، ولكني سـمعت صوتها الجميل وهي تقول: كيف تريد أن ترى الزمن، فأنت تقيس الزمن، وقد تدون أحداثه، ولكنك لا تستطيع أن تراه، فهو هيكل أنشأته أنت يا ابن البشر.

أنا بهدوء: ولكني أسمعك، فلماذا لا أراك؟!

السـنة ضاحكة: إنه من المسـتحيل أن تسـمعني أيضًا، فمقياس وقتي من صناعتك، ما كان لي وجود إلا من خلال عقول أجدادك، ولو سمعتني فلأن خيالـك خصـب، أما رؤيتـي فالأمر يحتاج إلى أكثر من الخيـال، وهو ليس في مقدور البشر.

وقفت متأملًا البحر وقلت: إذن سأتحدث وكأنك بحرٌ أو سماءٌ أحدثه.

السنة بصوت يعكس ضحكًا: هذا خيارك أنت... فهو خيالك وأنت حر فيه.

أنا: هل تعرفين قيمتك في التاريخ؟!

السنة ضاحكة: ليس لي قيمة اللهم باستثناء أحداثي التي أطويها.

أنا: ليكن... ولكنك من أهم السنوات.

السنة: أنا امتداد لعام 1491م، والقاعدة التي سيبنى عليها عام 1493م.

أنا: هذا تسطيح عميق لقيمتك.

السنة: لماذا؟

أنا: لأنك سنة فارقة في التاريخ البشري.

السـنة: وكيف لي أن أعرف هذا وأنا أدخل قبر الزمن في أقل من ساعات معدودات؟

أنا: هل يمكن أن تتخيلي أهمية الأحداث التي طويتِها؟

السـنة: أنـت لا تفهـم بعد... أنا لسـت مقياس فكر، كما أنـه ليس لي أداة تخيل... فما هي الأحداث التي تريد معرفتها؟

أنا: لقد أبحرت ثلاث سـفن هي «نينيا» و«بينتا» و«سـانتاماريا» من هذا الميناء الذي أقف فيه.

السـنة: نعم، وكانت لها اسـتعدادات كبيرة، وهي التي اكتنفت بمشـاكل كثيرة ومناقشات واسعة.

أنا: كيف بدأ الأمر؟

السنة: لقد كان الرجل الذي يدعى «كريستوبال كولون»..

أنا مقاطعًا: هذا الاسـم الإسـباني، ولكنه على مسـتوى العالم كان اسـمه كريستوفر كولومبس.

السـنة: أجل، ولكن كيف عرفت هذا فأنت من طيات سـنة لاحقة أليس كذلك؟

أنا: نعم... ولذا أسـتطيع أن أقول لك لماذا أنت سـنة مميزة ولكن بعد أن تقصي عليَّ أحداثك.... ماذا حدث مع هذه الرحلة؟

السنة: لقد كان الرجل شغوفًا بفكرة أنه يستطيع أن يصل إلى الصين شرقًا من خلال الإبحار إلى الغرب... الرجل مختل أليس كذلك؟!

أنا: سأشرح لك... ولكن قولي لي ماذا حدث.

السنة: لقد أراد الرجل أن تقوم دولة أو مركز أو جماعة بتمويل رحلته إلى الصين دون جدوى، فذهب إلى إحدى المقاطعات الإيطالية لهذا الهدف ولكنهم لم يأبهوا به، ثم حاول الرجل مع البلاط الملكي الإسباني؛ مع الملكة إيزابيلا والملك فرديناند فرداه ورفضا الفكرة...

أنا: لماذا هذا الرفض؟

السنة: لقد كان كولومبس على غير وفاق مع الكنيسة، فكان لها دورها في دحض جهوده تمامًا وإحباطه، خاصة أنه كان يقول إن الأرض مستديرة، وهذه الفكرة رغم أنها ثبتت علميًا منذ الفيلسوف اليوناني أرسطو فإن الكنيسة كانت رافضة لهذه الفكرة وتحارب كل من يدعو إليها...

أنا: هل تعرفين أن الكنيسة منعت أشياءً كثيرة في زمن تالٍ، وأنها كانت سببًا في تأخر العالم الغربي لقرون؟

السنة: لقد علمت من خلال السنوات التي سبقتني أنها بدأت تعمل بقوة لضرب كل معارضة لها، وكما ترى فاليوم عندنا ما يعرف باسم «محاكم التفتيش الإسبانية»، وهي أشرس أنواع المحاكم الدينية التي عرفتها الزميلات من السنين، فلو شاء حظك العاثر أن تتهم في إحدى الجرائم التي تحاكم فيها في هذه المحاكم أو تستجوبك فإنك غالبًا ما ستعاني بقوة إن

لم تمت، ولعلك تعترف من شدة التعذيب على أشياء لم ترتكبها مثل العلاقة مع الشيطان أو الهرطقة وغيرها من المصائب.

أنا: كيف تعامل كولومبس بعد ذلك؟

السنة: ذهب إلى البرتغال ففشل، ثم إلى دويلات إيطالية ولكنها لم تكن مهتمة بهذه الأمور إلى أن عاد مرة أخرى لإسبانيا وبعد رفض متجدد وافقوا على رحلته الأولى، والتي بدأت يوم 3 أغسطس من هذا الميناء، وقد استغرقت الرحلة قرابة ثلاثة أسابيع وصل بعدها إلى إحدى الجزر ثم بدأت رحلات استكشافية لبعض الجزر الأخرى.

أنا: هي الجزر المعروفة باسم الباهاماز.

السنة: لا اسمها سان سلفادور.

أنا ضاحكًا: هذا الاسم هو الذي أطلقه كولومبس عليها وهو يعني «القديس المنقذ»، ولكن مع الوقت سميت بالباهاماز؛ وهي مقصد سياحي شهير للغاية.

السنة: ولكني لا أفهم لماذا أنت مهتم برجل اكتشف بعض الجزر.

أنا ضاحكًا: أنتِ لا تعلمين؛ إنها ليست جزرًا ولكنها بشائر قارة كبرى، فلقد اكتشف الرجل قارة كبيرة للغاية، وعندما اكتشفت سميت أمريكا نسبة إلى الرحالة «أميريجو فيسبوتشي»، وهي الآن القوة العظمى في العالم.

السنة: ماذا؟! وكيف؟!

أنا: لقد بدأ الأوروبيون رحلات استيطان لهذه المناطق الجديدة وأقاموا فيها مجتمعاتهم..

السنة مقاطعة: وماذا عن السكان الأصليين؟

أنا: لقد استخدمت كل وسائل القمع والعنف والاستبعاد حتى إن بعض هذه الشعوب تعرض للتهميش الكامل والانقراض أو الإذابة داخل الكيانات الأوروبية.

السنة: كل هذا حدث بسبب كولومبوس؟

أنا: لا، الأمر أعقد من ذلك بكثير؛ فلقد كنتِ سنةً محوريةً لأنك غيرت أنماط الحياة بالكامل.

السنة متسائلة: كيف؟!

أنا: كما تعرفين فإن الحياة في أوروبا إقطاعية؛ أي أن الإقطاعي يملك الأرض الزراعية، وطبقة النبلاء والملوك تحكم الشعوب.

السنة: نعم هذا ما يحدث في إسبانيا، فالإقطاعي يملك حتى المزارعين العاملين في أراضيه، والصناعات محدودة للغاية.

أنا: تمامًا، فباستثناء الزراعة والرعي واللذانِ يشكلان الأساس، فإن الاقتصاديات مبنية على فكرة الورش الصغيرة، أو ما يعرف في الاقتصاد بالـ Guild System، ولكن بعدك حدث ما يعرف بـ «الثورة التجارية»، أي أن التجارة ارتفعت بمعدلات فلكية، وكانت النتيجة الطبيعية هي كثرة الأموال في أوروبا، فضخت هذه التجارة مالًا وصنعت رواجًا اقتصاديًّا قويًّا للغاية.

السنة: من هذا الاستكشاف؟

أنا: نعم... بل إن هذا كان تمهيدًا لتغيير نمط وسائل الإنتاج من البدائية إلى الصناعة الحقيقية، فقد أدت الأموال التي ضخت في اقتصاد أوروبا لبزوغ الثورة الصناعية الأولى والثانية،والتي غيرت سبل الإنتاج في أوروبا من الورش إلى المصانع الكبرى، والتي بدأت تنتج بكميات أكبر، وكان لهذا أكبر الأثر في تغيير الخريطة الاجتماعية في الدول الأوروبية.

السنة: كل هذا من مثل هذه الاستكشافات؟ لا أكاد أصدق!! قل لي: كيف أصبحت إسبانيا؟

أنا: لقد كانت إسبانيا أوفر الدول حظًّا حيث منحها الله قارة كاملة لتستغلها أسوأ استغلال، فركزت على نقل الذهب والفضة من هذه الدول إليها بما جعلها من أغنى البلاد في العالم... ولكن نظرًا لضعف قدراتها الفنية والسياسية فلقد أدى هذا الغنى إلى حالة من ارتفاع الأسعار، كما أنه لم يصل إلى الشعوب الكادحة.

السنة: نعم فالمزارعون والفقراء ليس لهم نصيب في مثل هذا الغنى... وهذه سُنة الحياة.

أنا: لا السُّنة تغيرت بعد أن أدركت الدول خطورة ذلك، وبدأت الأفكار الإنسانية تنتشر، فتم تهذيب هذه الأخطاء في الدول المتقدمة.

السنة: هل تم احتلال إسبانيا بعد ذلك؟

أنا ضاحكًا: لا، لقد أصبحت الدولة العظمى في أوروبا لها إمبراطورية

وأمـلاك أكبر مـن أضعاف حجم القارة الأوروبيـة، ولكنها كانت من أسرع الدول التي فقدت هيبتها وقدراتها على مستوى العالم!

السنة: كيف؟

أنـا: لقد كادت إسـبانيا أن تكون الدولة المهيمنة عـلى العالم، ولكن هناك مشـاكل كثيرة حدثت بعد ذلك؛ آخرها المحاولة العابثة لاحتلال إنجلترا في سـنة 1588 م والمعروفـة بـ «الأرمادا»، ومن بعدها انطفأت شـعلة إسـبانيا تدريجيًّا.

أنـا: ما شـعورك وأنتِ تنهين مهمتك الزمنية وأنـتِ على يقين بأنكِ كنتِ من أهم السنوات في التاريخ؟

السنة مستغربة: ما كنت لأتخيل لحظة واحدة أن هذا ممكن!! كيف حدث كل هذا؟! هل أنا فعلًا مهمة إلى هذا الحد؟

أنا: بـل أكثر مما تظنين، فأنتِ التي أطلقـتِ الأحداث فيها وظهرت فيكِ الأسـس التي غـيرت مجرى التاريخ، فلـولا وجودكِ لما كانـت هناك قارة قد اكتشـفت، كـما أنه مـا كان من الممكن أن تـأتي كل هذه الأمـوال لتغير مجرى التاريخ...

السنة: أنا فعلًا سعيدة، وأنا أستعد لتسليم آلة الزمن لسنة 1493 م، ولكن قل لي... كيف أثرت أحداث أخرى جرت في زمني على المستقبل البشري؟

أنا ضاحكًا: لقد كان لكِ أثر كبير خاصة في مسألة توحيد إسبانيا هذه.

السنة: بالفعل فلقد بدأت إسبانيا تتوحد بزواج إيزابيلا ملكة «كاستيل وليون» من الملك فرديناند ملك «أراجون»، ولجأت المملكة الموحدة لما أطلق عليها عملية «إعادة الاحتلال» حيث بدءوا في الاستيلاء على الممالك الإسلامية والعربية وطرد المسلمين تدريجيًّا من إسبانيا، فبعد قرابة ستة قرون تم طرد العرب والمسلمين منها، وكانت آخر هذه الممالك العربية مملكة غرناطة، والتي استسلمت لفرديناند وإيزابيلا في يناير من سنتي هذه.

أنا: تمامًا، وهو ما كان له أكبر الأثر..

السنة: كيف؟

أنا: لقد مثَّل هذا انحسارًا كاملًا للتوجه الإسلامي في غرب القارة الأوروبية، ولم يبق من الجناح الإسلامي إلا جناحه الشرقي ممثلًا في الدولة العثمانية، والتي استمرت في الضغط بلا أي فائدة، حتى استسلمت بعد حرب ضروس في القرن العشرين وألغيت الخلافة.

السنة: بالفعل فلقد سعى المسلمون لضمان نوع من التسامح مع من يريد أن يبقى، ولكن لا أعتقد أن أي فريق في القوة الإسبانية الصاعدة كان على استعداد لمنح المسلمين السلام في البلاد، فكانت الهجرة الإسلامية من إسبانيا إلى شمال إفريقية.... قل لي هل عاد المسلمون في أي عهد تالٍ؟

أنا ضاحكًا: لقد كان سقوط غرناطة امتدادًا لمعركة «بواتيه أو بلاط الشهداء» الشهيرة في عام 732هـ فلقد أنهى المُلك المشترك لإيزابيلا وفرديناند ما فشل فيه الإمبراطور الكارولينجي شارل مارتل في هذه المعركة...

السنة: إذن أنا سبب في ضعف القوة الإسلامية؟

أنا مبتسمًا: لا يا أيتها السنة المهمة... فأنت تمثلين فقط سقوط سنة واحدة إذا جاز التشبيه... فالمسلمون فشلوا لأنهم لم يتعلموا كيف يتحدون مثل فرديناند وإيزابيلا، كما أنهم لم يتعلموا كيف يصنعون المؤسسات الممتدة التي تضمن سياسات ممتدة تدفع الدول للأمام... فالعيب فينا ونلومكِ أنتِ وغيرنا....

السنة: وفي عمري أيضًا صدر المرسوم الشهير المعروف بـ «مرسوم الهمبرا»، والذي قررت إسبانيا من خلاله طرد اليهود من أراضيها، أو أن يتحولوا للمسيحية، فهاجر عشرات الآلاف من اليهود وذهبوا إلى بلادكم العربية والإسلامية، وذلك على الرغم من أن بعض الدوائر في البلاط الملكي كانت تسعى للإبقاء عليهم.

أنا: لقد تعرض المسلمون أيضًا لنفس التعامل في مطلع القرن القادم، واضطروا لمغادرة إسبانيا إلى شمال إفريقيا ومصر.

السنة: أعتقد أن هذا له علاقة مباشرة بمحاكم التفتيش وتدخل البابا في الشئون الداخلية لإسبانيا.

أنا: بالفعل فلقد عاشت إسبانيا لقرون طويلة مرتبطة ارتباطًا قويًا بمؤسسة البابوية ولكن هذا كان إلى زوال؛ لأن السياسة الأوروبية سعت للقضاء على أي تدخل ديني في سياسة الأمراء وهو ما ستشهده أختك سنة 1648م.

السنة: ولكن كيف تأثر اليهود بعد ذلك؟

أنا: لقد فتح الإسلام والعروبة أبوابهما لليهودية المهجرة من إسبانيا، فلقد كان هناك في مناسبات كثيرة في الحكم الإسلامي تطبيق للمبادئ الإسلامية الصحيحة، والتي سمحت لغير المسلمين بحريات واسعة النطاق، كما مثلته هذه الحالة، حتى الدولة العثمانية أدخلت ما سمي بالنظام الملِّي الذي سمح لغير المسلمين بالكثير من الحريات التي تكاد تصل إلى نفس حقوق المسلمين.

السنة: إذن العروبة والإسلام أنهت المشاكل الممتدة التي خلقها الأوروبيون لليهود.

أنا بحسرة: لا يا أيتها السنة العظيمة، فهذا لم يحدث على الإطلاق... فلقد ساهمت كل هذه الدول بعقدة ذنب ممتدة في أكبر مشروع استيطاني في القرن العشرين ممثلًا في الدولة اليهودية في فلسطين... فاليوم تم علاج مشكلة اليهود بمشكلة وآلام الفلسطينيين، وكل محاولات السلام انتهت بالفشل التام حتى الآن.

السنة: لقد استبدل بنو الإنسان معاناة أناس بآخرين...

أنا: نعم وهذه سنة السياسة التي لا تعرف إلا المصالح....

السنة: اصدقني القول كيف سينظر إليَّ الناس في زمنك؟

أنا ضاحكًا: من يعرفون التاريخ حتمًا سيقدرون قيمتك، ومن لم يعرف قيمتك فسأكتب عنكِ في كتابي هذا الذي أعده؛ لكي أوفيكِ قدركِ.

السنة: وهل لي في سؤال قبل أن توافيني المنية؟

أنا: بكل تأكيد.

السنة: كيف ستذكرني أنتَ؟

أنا: على أنـك من أهـم سـنين البشريـة، وإحدى السـنوات التي حولـت مجرى التاريخ.

وعنـد هذا الحد دخل علينـا منتصف الليل مسـتعدًّا ليخطف محدثتي إلى طي الموت إيذانًا بميلاد سـنة 1493 م تنفيذًا لسـنة الحيـاة، ولكن في التاريخ البشري لا تُنسـى السـنون بل تُذكر على أنها كانت سقفًا لحركة تاريخ السنين التي قبلها، وأساسًـا لحركة السنين التي سـتأتي بعدها، ولا يقف الإنسان إلا متأملًا لما تمثله السـنون من عبر، ولكنها العبر التي لا نعتبر بها إلا قليلًا؛ ولذا فإن التاريخ يمثل تكرارًا لأخطاء متواترة.

هوراشيو نلسون

هوراشيو نلسون

كان اليوم باردًا من أيام الربيع الإنجليزي حيث ذهبنا جميعًا إلى مدينة «بورتسموث»، والتي لا تبعد كثيرًا عن العاصمة الإنجليزية لندن، وقد كنت متطلعًا، بل ملهوفًا لزيارة هذه المدينة الساحلية لأن فيها رمزًا من أهم رموز التاريخ البريطاني، إنها السفينة الحربية «فيكتوري» أو النصر؛ سفينة قديمة تم بناؤها في نهاية القرن الثامن عشر عندما كانت بريطانيا في حرب ممتدة مع فرنسا، ولكن قيمة هذه السفينة تكمن في كونها آخر سفينة يقودها أمير البحر الإنجليزي لورد «هوراشيو نلسون» والذي مات على متنها بعد معركة «ترافلجر» أو «الطرف الأغر»، كما أنه أيضًا بطل معركة أبي قير البحْرية الشهيرة، والذي وضع النهاية القاتمة لفرص استمرار الحملة الفرنسية على مصر والشام عندما أغرق الأسطول الفرنسي المرابط في أبي قير عام 1798م، وهو أيضًا صاحب النصر في معركة كوبنهاجن الشهيرة، كما أن إنجلترا تنظر إليه باعتباره المنقذ الحقيقي لها؛ لأنه استطاع بقيادته للأسطول الإنجليزي أن يحميها من حملة مؤكدة كان نابليون بونابرت يجهز لها لغزو إنجلترا بكل تأكيد، ولكن نلسون وقف حائلًا دون هذا، وكانت كل إنجلترا تحبه لهذا السبب ولمعاركه الشهيرة.

نظرت إلى السفينة وتأملتها ولم أصدق أنني على متن السفينة التي شهدت واحدة من أشهر المعارك البحْرية في التاريخ الدولي لإنجلترا على الإطلاق، وفي الدور الأسفل للسفينة يوجد مكان عليه لافتة كبيرة تُذكِّر الجميع بالموضع الذي فاضت فيه روح نلسون بعبارة «هنا مات هوراشيو نلسون».

لقد تخيلت نفسي وأنا أشاهد لحظات احتضار اللورد نلسون في نفس مكان هذه اللافتة واللحظات المؤثرة التي سبقت الوفاة، وإنني أنظر إلى الرجل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد حياة عامرة بخدمة الوطن وسط إعجاب وثرثرة الشعب الإنجليزي، تخيلت نفسي وأنا أرى رجاله حوله يبكونه، ورأيت قائد السفينة الكابتن «توماس هاردي» يقبله قبيل وفاته بناءً على طلب «نلسون»، منظر مؤثر بحق، الكل يعرف أنه يوم النصر، ولكن الجميع لا يتذوقون طعم النصر، ورغم أنهم أبلغوا نلسون أنه انتصر فإن الألم لم يسمح له بالاستمتاع بهذه اللحظة التي جعلته البطل القومي البريطاني... ها هو المشهد المعتاد... البطل يموت، هذا العبقري البحْري يستعد لملاقاة ربه وسط نحيب الرجال، وبكاء كل الأسطول، فهو صاحب معارك حاسمة أنقذت البلاد وجعلت منها القوة البحْرية العظمى والوحيدة في الوقت نفسه، ها هو نلسون ينظر إلينا جميعًا بعينه الواحدة وهو معرى الصدر بعد أن أصابته رصاصة قناص فرنسي لتكسر عموده الفقري وتمزقه وسط آلام تفوق احتمالات البشر، ها أنا أقترب منه لأسمع آخر كلماته على ما أظن، أسمعه يقول لرجاله: «حمدًا لله أنني قمت بواجبي»، ثم يفارق الرجل الحياة في هدوء وسط البكاء والدموع.

لقد وضعوا الجثمان في منطقة جانبية في حجرته وخرجوا تاركين إياه مغطى، ولكنني لم أستطع الخروج معهم، فكم من فرصة ستسنح لي لأرى اللورد «نلسون» حتى لو كان جثةً هامدةً، فكشفت الغطاء عن جثمانه لأرى هذا الجسم الذي عانى بشدة مشقة الحياة والحرب، فلقد فقد عينه اليسرى في معركة «كيب سانت فينسنت» كما فقد يده اليمنى التي كان يكتب بها في معركة «تنيريفي» في إسبانيا... مسكين هذا الإنسان، والذي كان يحتاج في مراحلَ معينةٍ من حياته أن ينام بالأفيون من شدة الألم!! كيف استطاع أن يحول الكتابة من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى؟! كيف استطاع أن ينافس في البحْرية البريطانية وهو بيد واحدة وعين واحدة؟! كيف استطاع هذا الرجل أن يحسم المعارك التي خاضها لصالحه... كيف؟! أسئلة متناثرة تحتاج لنصف ساعة فقط مع هذا الرجل ليجيب عنها، ولكن ها هو بشعره الأبيض المموج ووجهه الناصع وجسده النحيف ويده المقطوعة يرقد جثة هامدة، أو هكذا ظننت...

لقد بدأت أشعر أن النفس يدب فيه مرة أخرى وأن الرجل عادت له الروح، فهو يتألم بصوت خافت ويقول: «أفيون... الألم كبير... الألم شديد»، نظرت حولي مكان ما كان صريعًا وأحضرت له ما تبقى من أفيون، والذي كان يستخدم لتخدير المتألمين أثناء الحروب، وقلت له بهدوء شديد: «يا لورد... هل تسمعني؟ ألست ميتًا؟!».

نظر نلسون وقال بابتسامة إنجليزية ساخرة تخفي الألم: كيف أُحدثك وأنا ميت يا سيد؟!... من أنت؟!

أنا بهدوء: أنا مصري حضرت شاهدًا لمقتلك على متن سفينة الفيكتوري...

نلسون يبتسم ويقول: أنت تذكرني بأيام مجدي في أبي قير عندما دمرنا الأسطول الفرنسي في معركة «النيل» يا مصري.

أنا: هل يجوز لي سؤالك بعض الأسئلة؟

نلسون: تريد أن تعتصر الإجابات قبيل وفاتي، فأنا ميت أليس كذلك؟

أنا: أجل يا سيدي اللورد... إنها مسألة دقائق معدودات...

نلسون بسكينة كبيرة: سل ما شئت.

أنا: هل يمكن لك أن تجيب عن أسئلتي بغير الاقتضاب المعروف عنك يا لورد... ثم من أين نبدأ؟... من طفولتك؟

نلسون: كنت طفلًا وسط أسرة من ثمانية أطفال... وكانت أمي هي المقربة لي وكنت أحبها كثيرًا فهي كانت من عائلة أرقى من عائلة أبي، وقد أحبَّته، فلقد كان رجلًا طيبًا ولينًا، ولكني كنت مرتبطًا بأمي ارتباطًا شديدًا.

أنا: ألم يكن والدك قريبًا منك؟

نلسون بنظرة تَذكُّر وحنين إلى الماضي: إنني أريد الموت الآن لملاقاة أمي... لا لم يكن مقربًا مني... أمي كانت قريبة لي وكنت أحبها كثيرًا وأظل إلى يومنا هذا أتذكرها كثيرًا... فلقد كانت تشعر بي دائمًا وكانت تغمرني بحبها، كما لو أنها كانت على دراية بأن القدر يخبئ لي الكثير... فلقد كانت تثق فيَّ وتشعرني بأنني أهم أخ وسط إخوتي.

أنا: ثم ماذا حدث؟

نلسـون والدمـوع تنزل من عين واحـدة: ثم ماتت حبيبـة عمري وأنا في الثامنـة مـن عمري... مات سـندي، ولكن ليس قبل أن تـترك لي خالًا جميلًا ساعدني على دخول البحْرية كصف ضابط.

أنا: هل كان والدك مؤيدًا لدخولك البحْرية؟

نلسون مبتسمًا: لم يكن الرجل صاحب رأي، فكان عليَّ أن أحسم أموري منذ الصغر، وقد كنت أشاهد السفن تمر في الموانئ، وكنت دائمًا أريد أن أكون أمـير البحـار، فهو حلم كل طفـل إنجليزي، أما أن أعيـش وأموت على متن سفينة حربية فهذا شرف كبير لم أتخيله ولكني حلمت به.

أنا: وعندما دخلت البحْرية في سـن مبكرة، هل كنت تتخيل للحظة أنك قادر على أن تصبح اللورد نلسون الشهير؟

نلسون مبتسمًا: لا ولكني كنت أشعر أنني على موعد مع العظمة والوطنية؛ فأنا أحب بلادي كثيرًا... حقيقة كنت أحب هذا البلد...

أنا: لقد دخلت كما نقول «بواسطة» من خلال أقارب أمك.. ألا تشعر يا رجل أنك أخذت ما لا تستحق؟

نلسـون مبتسـمًا: سـؤال غريب لرجل يجهل الظروف المحيطـة بنا.. فهل صنعت الواسـطة هذا النصر؟ علها تكـون كذلك !! غريب أنت تبحث عن سبب غير موجود لقضية غير واردة...

أنا: أعتقد أنني أسأت التعبير يا لورد، معذرة، فأنت لست المثال الوحيد في التاريخ الإنجليزي الذي يسمح بعنصر الواسطة للتدخل لمساندته، فأنا أعرف حالة مشابهة وهو «تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا بعد مائة وثلاثين سنة من الآن؟

نلسون: وهل تعرف الغيب؟

أنا: أقرأ كتب التاريخ. وعند هذا الحد أدركت أن الرجل سيسأل عن صديقته إيما وابنته هوريشيا التي أنجبها منها بالسفاح، وهو ما حدث بالضبط.

نلسون بحنين شديد: ماذا حدث لإيما وهوراشيا؟

أنا: هما بخير فلا تقلق...

نلسون بنظرة لأعلى: حمدًا لله.

أنا: هل لي أن أعرف كيف تعرفت إلى إيما وكل منكما متزوج؟

نلسون والابتسامة على وجهه: أعرف أنك تريد أن تسأل عن النميمة والثرثرة... شأنك شأن كل إنجلترا.

أنا: هل صحيح أنك كنت على علاقة بها وهي متزوجة وعلى ذمة رجل آخر وبعلمه؟

نلسون بنوع من العتاب في وجهه: نعم... فلقد عرفتها بعد معركة النيل مباشرة...

أنا مقاطعًا: لماذا تسميها معركة النيل وهي اسمها معركة أبي قير البحرية في مصر؟

نلسون بابتسامة: العظماء في التاريخ يسمون معاركهم وَفْقًا لمناطقَ شهيرةٍ، فلا أحد يعرف «الأبو قير» هذه... ولكن الناس يعرفون النيل!

أنا: ولكن النيل لم يكن قريبًا من مكان المعركة.

نلسون ضاحكًا: وهل كانت معركة إمبابة لنابليون بونابرت أمام الأهرامات ليسميها معركة الأهرامات بدلًا من إمبابة؟

أنا: ليكن... عودة لإيما.

نلسون وكأنه مفتون بها يراها لأول مرة والولع على وجهه حتى وهو يستعد لملاقاة ربه: لقد كانت إيما زوجة السفير الإنجليزي في نابولي في إيطاليا... وعرفتها هناك... وأذكر أول مرة رأيتها فيها... لقد كانت جميلة... ملاكًا؛ ثم تنهد الرجل فجأة وأغمض عينيه من شدة الألم وقال: «أشعر بدنو الأجل... ولكن إيما معي تريح رحلتي».

أنا بلا مبالاة خوفًا من دخول الرجل لغيبوبة: إيما يا لورد... إيما..

نلسون يتحمل الألم فيقول: كانت كالوردة وأحببتها من أول وهلة، وهي نفس الشيء...

أنا: ولكنها كانت متزوجة؟

نلسون: نعم وهو يكبرها بأكثرَ من ثلاثين سنة...

أنا: ولو يا لورد...

نلسون: هل تعرف أنها لمست أعماقي بنظرتها، وكأنها مدت يدها لتضمد جراح القلب المتألم، وكسرة الروح التي كانت تتملكني؟!، كنت أشعر

بطفولتي وأنا معها...، وهي أحبتني حبًا جمًا.. أحبت الرجل الأكتع والأعور، فلقد أخذت على نفسها مشقة أن تحبني ومنحتني سعادة ما شعرت بها مع أحد...

أنا: وزوجها؟!

نلسون: لم يكن على قيد الحياة بالنسبة لي... فأنا أحببتها وما كنت لأستطيع أن أتركها، أعرف أن هذا غير مقبول اجتماعيًا أو حتى دينيًا.

أنا: لقد كان زوجها يعرف ذلك، فلماذا وافق على علاقة زوجته برجل آخر؟

نلسون: له ما شاء... المهم أنه ترك لي إيما...

أنا: ولكنك متزوج من «فاني» وهي من اختيارك أنتَ، وكنتَ في الثامنة والعشرين، فهل نستطيع أن نقول إنك خُدعت أو تسرعت؟

نلسون: لقد احترمتها ولكني لم أستطع حبها، وفي المقابل لم أستطع أن أقاوم حب إيما يا رجل... كما أنني سعدت كثيرًا عندما أنجبت لي هوراشيا وتحملت هي مشقة غضب زوجها...

أنا: هذا غريب كما أنه كلفك الكثير... فلقد رفضت الأوساط العسكرية في لندن هذه العلاقة ولكنك بقيت معبود الشعب الإنجليزي، لماذا؟

نلسون: لأني أمثل لهم النصر... فلو هُزمت هزيمةً واحدةً لانفضوا من حولي، وهذه سُنَّة الشعوب، تأتي إليك مع النصر وتلفظك مع الهزيمة.

أنا: لقد كانت أول قيادة لك على المركبة «أجاميمنون» عام 1794م فماذا كان شعورك؟

نلسون ببرود إنجليزي معهود: عام 1793م... كان شعورًا بالفخر، وقد بقيت لسنوات قائدًا لهذه السفينة الجميلة، والتي أحببتها كثيرًا.

أنا: لقد سَمَّى الموسيقار الشهير «هايدن» مقطوعة على اسمك، وإنجلترا رفعتك إلى أعلى مراتب التقدير كما لم يحظ أحد! ألم تفكر أنك يمكن أن تدخل السياسة من أوسع أبوابها، فلقد فعلها من بعدك رجال مثل اللورد ولينجتون؟

نلسون يرمش من شدة الألم ولكنه يبتسم ويقول: هذا الرقيع... فعلها... كنت أعرف ذلك عنه.. فالحروب يا رجل صانعة الأبطال ولو حتى كانوا من ورق.

أنا: لنتحدث عن معركة أبي قير... ماذا كانت خطتك؟

نلسون ببرود إنجليزي ليس بغريب: أن أهزم الفرنسيين!

أنا: أقصد التكتيك العسكري...

نلسون: لقد دخلنا عليهم في الليل وهذا كان متعمدًا؛ لأنني كنت أريد المفاجأة، وعندما يكون الأسطول راسيًا فإن حالة الاسترخاء تكون كاملة، وقد طوقته تمامًا وأغرقته من الجانبين...

أنا: لماذا هذه الكراهية للفرنسيين؟

نلسون: لا، المسألة أكبر من ذلك... فنحن دولة جزيرية، أي أننا نحيا على البحار ولا يمكن أن نترك البحْر لأنه مصدر قوتنا، بالتالي فقد كان لابد من تقليم أظافر الأسطول الفرنسي في المتوسط وجعله منطقة خاضعة لنفوذنا... هل فهمت؟

أنا: هل تكره نابليون بونابرت؟

نلسون مبتسمًا: أنا أكره كل من يضر ببلادي، ولكن الرجل عبقري في الحرب.

أنا: عدت للبحر مرة أخرى ولكن ليس كقائد للأسطول الإنجليزي في معركة كوبنهاجن لضرب التجارة بين الدانمرك وفرنسا، ولكنك كنت الرجل الثاني.

نلسون: أجل هذا ما حدث.

أنا: لماذا؟

نلسون: لقد أثرت علاقتي بإيما على فرصي؛ فلقد كانت «الأدميرالية» أو القيادة البريطانية لها وجهة نظر سلبية تجاه علاقتنا، وهو ما أثر على فرصي في تولي القيادة منفردًا.

أنا: كيف كانت المعركة؟

نلسون: لقد كانت معركة شرسة للغاية... وكان القائد سخيفًا وحاول أن يمنعني من المضي قدمًا في هذا السبيل ولكني رفضت.

أنا: هناك قصة طريفة تتداول في هذا الصدد، أليس كذلك؟

نلسون مبتسمًا: نعم... بالفعل.. فلقد أرسل الرجل الإشارة لي وأنا أقود سفينتي للمعركة يطلب مني الانسحاب، وبالطبع كان لا بد لي أن أستجيب، ولكن النصر كان في متناول يدي؛ لذا فقد وضعت النظارة المعظمة على

عيني التي لا أرى بها وقلت بأعلى صوت لمن حولي إنني لا أستطيع أن أرى التعليمات... ثم ضحك الرجل كثيرًا، وقال: «على الأقل سيتذكر لي التاريخ أنني أمتلك بعض خفة ظل؟».

أنا: للأسف هذه السمة ليست ضمن صفاتك التي ستتناقلها الأجيال يا لورد... ولكن قل لي: ما علاقتك بالضباط الذين كانوا تحت قيادتك؟

نلسون: لقد كنت دائمًا الأب الروحي لهم، كنت أقسو عليهم عند الخطأ، ولكنهم كانوا جميعًا مدركين أنني كنت قائدهم، وكانوا يستلهمون مني الثقة والقدرة والثبات، ولكن أنت تعرف أن البحْرية الإنجليزية كانت تصر دائمًا على الحفاظ على وحدة الصف والانتظام داخل سفنها؛ لذا كنت قاسيًا في بعض الأوقات.

أنا: عفوًا... ولكنك قليل الكلام واجتماعياتك محدودة يا لورد فكيف تفسر حبهم لك؟

نلسون مبتسمًا والإرهاق يبدو واضحًا عليه: نعم... أعرف... ولكني كنت دائمًا القدوة لهم، وكنت أقربهم لي دون أن أسمح لهم بالاقتراب، هل تفهم ما أقول؟

أنا: لا.

نلسون: إنها المعادلة الصعبة... ولكن العنصر الحاسم كان احترامهم لي لأنهم يعرفون أنني قوي وأستطيع أن أقودهم وهم عندهم ثقة كاملة فيَّ.

أنا: لنعد إلى الساعات الأخيرة يا لورد، كيف استعددتَ للمعركة؟

نلسون والإعياء يدخل عليه: لقد ابتكرت وسيلة سهلة للغاية في ضرب الأسطول الفرنسي ـ الإسباني المشترك، فلقد قررت أن أهاجمهم بزاوية مستقيمة من خلال صف مراكب بحيث أمكن لي أن أشقهم إلى نصفين فأكسر وحدتهم، ثم أقوم بضربهم من الجانبين أثناء عملية الشق، ثم ناورت بمجرد أن شققتهم إلى نصفين، واستكملت الضرب قبل أن يستطيعوا وضع المراكب بشكل يسمح لهم بالرد علينا... إنها خطة بسيطة للغاية، وقد وجهت الخط الآخر لسفني بأن يطوق الجانب الأيمن للأسطول الفرنسي... هل تعلم أن البساطة هي وسيلة النصر الأولى؟

أنا: إنك عبقري...

نلسون: لا، إنه الإلهام الإلهي، فلقد صليت لله قبيل المعركة مباشرة وهو الذي أخذ روحي وأعطى بلادي روحًا جديدة.

أنا: أعتقد أنني في حاجة لتفسير منك، كيف تكون متدينًا وتصلي في مناسبات كثيرة وأنت على علاقة بامرأة ولك منها ابنة من السفاح؟

نلسون بهدوء وتعب: إنه الحب يا رجل... هي روحي وحياتي، ولو كان لي في حياتي بقية لمنحتها إياها، فلقد عشت معها أجمل لحظات عمري خاصة بعد وفاة زوجها...

أنا: ما أجمل شيء في حياتك؟

نلسون وقواه بدأت تخور: لقد ملكني ثلاثة أنواع من الحب؛ حب إيما وهوراشيا والبحر، وسوف أموت في البحر، بينما دفنت قلبي يوم أن فارقت

إيما وهوراشيا قبل أن أبحر لآخر مرة... لقد كنت أعرف أني لن أعود... إنه شعور بدنو الأجل.

فجأة أمسك الرجل بيدي وأخذ يخرج الكلمات بصعوبة بعد أن داهمه الألم فقال: قَبّل إيما وهوراشيا وقل لهما إن آخر ما قاله نلسون على عكس ما سيقال هو «إيما وهوراششش...»، ثم سكت سكتته الأخيرة...لقد فارقت روحه جسده، مات الرجل وعاد جثة هامدة كما كانت.

نظرت إليه بإمعان قبيل أن أغطيه كما كان قبل لقائي به، ولكنني أعتقد أنني فهمت الرجل أكثر، فهو الشخصية المتحفظة المتدينة، والذي عندما مات طلب من صديقه هاردي أن يقبله، رجل جاء له المجد وبحث هو عن الحب، فوجد الأول في البحر والثاني في عشقه لمحبوبته إيما، وذلك على خلفية رجل متدين قريب من الله سبحانه وبعيدًا عنه في آن واحد، شخصية متناقضة، صلبة وضعيفة، محب ومتحفظ، ولعل ذلك يكون مرجعه فقدانه لوالدته التي كانت تمثل له الحياة والأمان فيها، خاصة مع دور متواضع للأب، أو لعلها حياة الوحدة على متن السفن الحربية، أو شعوره بأنه منعزل وسط أسرة من أطفال كثيرين...

أيًّا كانت الأسباب فقد قمت بتغطية جثمان الرجل وأنا أقول بصوت عالٍ: «إنا لله وإنا إليه راجعون... ما أغنى عنه مجده وحبه».

حديث الإسكندر



حديث الإسكندر

أخذ الشاب الملك ذو الشعر المائل للون الأصفر ينظم صفوف جيشه وهو يمتطي صهوة جواده الأبيض في الجو الحار ويضع خوذته الشهيرة على رأسه، الخوذة التي يخرج منها جناحان، والتي يعرفها جيدًا كل من حارب تحت لوائه، وفي هذه الأجواء استعد الرجل لمعركة فاصلة تكاد تكون الأخيرة له في «هيداسبيس» بجوار «نهر الإندوس» عام 326 قبل الميلاد، وهي المدينة التي تبعد عن مسقط رأسه في مقدونيا بآلاف الكيلومترات في إطار حملته العسكرية الواسعة في آسيا بعد أن كسر إمبراطورية فارس...

ووسط هذا الجو المشحون وقف الملك الشاب يصدر تعليماته لجنرالاته الذين كانوا يكبرونه بعقود طويلة حيث شرح الخطة العسكرية للمعركة ضد الملك «بوروس»، ورغم أن الجيش اليوناني كان جاهزًا للمعركة فإن الروح المعنوية لم تكن عالية بين الجنود، فقد كانت آخر مرة رأوا فيها أهلهم وذويهم منذ ما يقرب من عشر سنوات عندما عبر بهم هذا الملك الشاب من شبه الجزيرة اليونانية إلى آسيا الصغرى في بداية الحرب بين اليونان وفارس، تلك الحرب التي امتدت عبر قرون طويلة من الزمان، ولكنها اليوم تُحسم

لصالح اليونان بالقضاء على الإمبراطورية الفارسية واحتلال كل أراضيها وما بعدها.

ما كان ليفوت على أحد أن يلمح القلق في أعين الملك الشاب رغم ما أحاط نفسه به من شموخ وكبرياء، قلق لا يعكس خوفًا ولكن توترًا داخليًّا، فالرجل لم يكن يعرف الخوف، وهو ما يمكن أن يلاحظه أي شخص لو نظر إليه وهو يبدأ المعركة ويشتبك في مطلع الجيش كأي جندي عادي في المقدمة لا يأبه بالموت، يقاتل ويقتل والدماء تسيل منه وسط صهيل الخيل، وفي هذه المعركة يكون النصر فيها أيضًا حليفًا لهذا الملك الشاب، ومع ذلك فلا يمكن أن ترى السعادة أو الارتياح على وجهه، وكأن متعته لا تكتمل أبدًا، حتى بعد أن دخل إلى خيمته في المساء بعد المعركة، فقد بدا منكسرًا وهو في أوج نصره، فوقف الرجل يغتسل بالماء في خيمته، وحوله جنرالاته وأنا معهم، فقال بهدوء: «كافئوا الرجال كما نفعل كل مرة، وجهزوا المراسم التأبين لجثث موتانا»، ثم قال لبطلميوس (أحد أشهر جنرالاته، والذي حكم مصر بعد موته وأسس أسرته الشهيرة التي حكمت مصر حتى الغزو الروماني عام 30 قبل الميلاد): «تعامل مع الأسرى ولا تقتلهم وسأقول لك غدًا ماذا سنفعل بهم»، ثم استدار وقال بصوت خافت: «اخرجوا فأنا أريد أن أختلي مع والدي».

نظر إليَّ الإسكندر وقال بصوت مرهق: «هل أعرفك؟»، فقلت له: «لا... ولكنني أعرفك أنت أيها الملك الشاب».

استرعت هذه الجملة انتباهه، فابتسم ابتسامة باهتة مرجعها الإرهاق والتعاسة وقال: «وماذا تعرف عني؟».

أنا: أجل، فأنا أعرف ما لا تعرفه أنت عن نفسك ومستقبلك!

الإسكندر ضاحكًا: «مستقبلي أصنعه بدعم من والدي الإله زيوس»، ثم رجع إلى مجلسه وهو بلباسه الأبيض الملطخ بالطين والدم وقال بهدوء: «.... من أين أنت؟».

أنا مبتسمًا: من أجيبتوس (مصر).

الإسكندر: تبدو وكأنك تعرف عني الكثير!

أنا: نعم.

الإسكندر: من السمع؟

أنا: لا، من القراءة في كتب التاريخ...

الإسكندر مبتسمًا: يبدو أنك تأتي من المستقبل.

أنا: نعم.

الإسكندر مستخفًّا: وهل تعرف أن بلدك مصر محبب إليَّ للغاية، وله مغزى خاص في نفسي.

أنا مقاطعًا: لوجود آمون فيها ؟

الإسكندر بضيق: لا، مصر أكثر من آمون... فمصر منظومة متكاملة تعلمنا منها... أعجب لأنك منها ولا تعرفها... الجهل سمتك أيها المجهول، فإن كنت جاهلًا فاغرب عن وجهي!

أنا مقاطعًا مرة أخرى: ولكنك تحب آمون وزرت معبده بمجرد أن هبطت مصر! وتكبدت ما يقرب من الشهر لمجرد الزيارة.

الإسكندر مقاطعًا بعصبية: جهلك يزداد في عيني... فلقد ذهبت إلى هناك لأحادث كبار الكهنة لسبب ما في نفسي...

أنا: وقد خرجت بعد اللقاء مبتسمًا وسعيدًا وبدا ذلك عليك مع رجالك، لماذا؟

الإسكندر بضحكة باهتة للغاية: نعم لقد كنت سعيدًا.

أنا: هل لأن كبير الكهنة قال لك إنك لم تشارك في مؤامرة مقتل أبيك وإن موته كان قرارًا للآلهة؟

وعند هذا الحد وقف الشاب وتوجه ناحيتي والغضب يعتريه ولطمني بقوة فأطاح بي أرضًا وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة: «أيها الحقير... إياك وأبي... إياك وأبي... فأنا لم أقتله... هل تفهم؟!... لم أقتله».

ثم فوجئت بحراسته تدخل بقوة ويلتفون حولي، فيسندونه فيلفظهم من حوله وهو يصرخ: «اصلبوا هذا المصري... اصلبوه»، وإذ بالحراسة تأخذني بقوة ولا أجد ما أقوله لهم فتوجهت للإسكندر بقولي: «هل هذه شيمة أبناء الآلهة أو الملوك؟».

استرعت الجملة سمع الملك فنظر إليَّ نظرة يشوبها الإرهاق وهو يهم بالجلوس، فأشار لحرسه فتركوني، وحاول اثنان منهم إركاعي على رُكْبَتَي فقلت وأنا أتوجه إليه بنظراتي: «الركوع للإله طواعية... ولكن للطغاة

بالإكراه....» فنظر الإسكندر إليَّ مرة أخرى وقال بهدوء وهو يسترخي على كرسيه وينظر في أعلى الخيمة والهم في عينيه: «اجلس واصمت».

أدركت عند هذا الحد خطورة ما أنا مقدم عليه، وأن الإسكندر رجل مضطرب نفسيًا، فالرجل ليس من النوع الذي يؤتي الاستفزاز النتائج المرجوة منه، فقلت له بهدوء شديد: ماذا قال لك كبار الكهنة في معبد آمون؟

الإسكندر ضاحكًا: قالوا لي ما أكد لي أنني ابن الإله زيوس.

أنا: وهل تؤمن حقًّا بأن زيوس والدك؟

الإسكندر: وماذا تعرف عني في هذا... ماذا تسمع؟

أنا بهدوء شديد: أنا كنت أقرأ عنك... فأنا من زمن تقول الكتب فيه عنك الكثير.

الإسكندر ضاحكًا: وماذا تقول الكتب عن ألوهيتي؟

أنا مبتسمًا: لقد كنت على شفا أن أُصلب، فماذا سيحدث لو قلت الحقيقة فهل تصلبني أم تقتلني؟

الإسكندر مبتسمًا: لك الأمان.

أنا بابتسامة صفراء باهتة: تقول عنك إنك تؤمن بأنك ابن الإله، ولكن هذا أمر غير حقيقي بطبيعة الحال؛ لأن كثيرًا منا يعبد في زمني إلهًا واحدًا.

الإسكندر مقاطعًا: إذن أنتم تعبدون والدي زيوس كبير الآلهة.

أنا: لا... لا توجد آلهة اليوم كما أنه لا وجود لأوليمبيا أو المكان الذي

كانوا يجتمعون فيه وَفْقًا للمعتقدات اليونانية القديمة، كما أن الإله عندنا ليس مرتبطًا بالظواهر الطبيعية كالأرض والسماء والبحر إلخ... فقط إله واحد قادر على كل شيء.

الإسكندر: لقد حاول أخناتون هذا الأمر في مصر ولم يفلح.

أنا مبتسمًا: الدنيا تغيرت... فإله واحد منذ بدء الخليقة... وهذه معتقداتنا.

الإسكندر ببعض الضيق: إذن لا مكان لوالدي زيوس في عالمكم!... كيف؟!

أنا: لا عليك فالزمن يغير أمورًا كثيرة.

الإسكندر مستغربًا: أنا ابن للإله... كيف تطمسون والدي من حاضركم؟!

أنا مبتسمًا: لا...

ضحك الإسكندر ضحكة هستيرية عرفت منها أن ثقته بدأت تهتز، فقال لي بابتسامة: هل تعرف كيف فقد والدي فيليب المقدوني إحدى عينيه؟

أنا مبتسمًا: أعتقد، ولكن أحب سماعها منك.

الإسكندر مقاطعًا: لقد كان والدي «زيوس» يزور فراش أمي في أشكال مختلفة ليخفي ألوهيته، وفي أحد الأيام جاء إليها وكان والدي يتجول في القصر فسمع صوت زيوس يُطارِحها الغرام فتجسس عليها، وعندما سمعته صرخت فيه: «سيعاقبك زيوس»، ثم انفجر الإسكندر ضاحكًا وقال: «وبعد أيام قليلة دخل معركة ففقد عينه».

نظرت إليه نظرة استخفاف قائلًا: تتعدد المعتقدات عند الناس يا أيها الأمير.

قاطعني قائلًا: إنك لا تعرف شيئًا عن الآلهة، وكأنك لست من مصر.

قلت له: لك ما شئت من معتقداتك، ولي ما شئت في إيماني.

الإسكندر مستخفًّا بي: وماذا تقول الكتب عني؟ هل يعرف العالم عني أنني كسرت حدود المجد والعظمة؟ أنني فعلت ما لم يفعله أحد من قبل أو بعد؟

أنا مقاطعًا: عفوًا أيها الملك... سيأتي رجل من بعدك من أقصى الشرق اسمه جنكيز خان فيكون هو الذي سيكوِّن أكبر دولة بفتوحاته وقوته.

الإسكندر: من أين هذا الرجل؟

أنا: من مملكة المغول.

وهنا ينفجر الإسكندر ضاحكًا وهو يقول: هؤلاء!! لا أصدق! كيف هذا؟! يستحيل! غير ممكن!

أنا: ولكنه سيحدث...

الإسكندر: وكيف ينظر إليَّ الناس في عهدك؟

أنا مبتسمًا: لنترك هذا لآخر مراحل الحديث... وقل لي أيها الملك الشاب، لماذا كانت علاقتك بوالدك فيليب مضطربة؟

الإسكندر: أمي... هي السبب... هي التي كانت دائمًا تنظر إليه نظرة دونية، ولكنك لن تفهم هذا لأنك من خارج اليونان، فأبي من مقدونيا وهي مقاطعة بشمال اليونان، وكثيرًا ما ينظر اليونانيون إليها على أنها لا تنتمي للثقافة

اليونانية، فكانت تنظر إليه دائمًا نظرة ازدراء على أنه متدنٍّ ثقافيًا؛ لذا كانت تصمم على أن يعلمني أفضل الناس مثل أرسطو، هل هو معروف في عالمكم؟

أنا مبتسمًا: هو أبو الفلسفة والمنطق وعلم الأخلاق والجمال، وهو أساس علمي مهم ترتكن إليه الفلسفة في العالم.

الإسكندر ضاحكًا: قد كنت أنظر إليه كذلك، فالرجل له رؤية ثاقبة وعظيمة، وفي الحقيقة هو الذي علمني حب العلم والثقافة اليونانية.

أنا مبتسمًا: هل قال لك والدك فيليب إنه يجدر بك أن تجد مملكة أخرى لأن التي سيتركها لك أصغر من حجمك؟

نظر إليَّ الإسكندر وقال مبتسمًا: حدث ... نعم وكأنه كان يعلم الغيب والنعمة الإلهية الممنوحة لي...

أنا: لماذا قال هذا؟

الإسكندر متذكرًا: كنت صبيًا وكان هناك حصان أسود عظيم، فكان القوم يحاولون امتطاءه ولكنه كان يرفض ويرفس كل من يأتي فوقه، فجريت عليه في حضرة الملك فيليب ورجاله وجنرالاته، وأَدَرْته وامتطيته، ففعلت ما لم يستطع أحد أن يفعله.

أنا: وكيف فعلت ذلك؟

الإسكندر بابتسامة مهمومة: كان الحصان يواجه الشمس، والتي كانت تضايقه كثيرًا، فجعلت ظهره للشمس وامتطيته بعيدًا عن أي خيال أو ضوء...، ثم انفجر ضاحكًا وقال لي: «لقد كنت حكيمًا حتى وأنا صبي!!!».

ابتسمت قائلًا: وما زلت.

نظر إليَّ نظرة استهجان وقال: هل تعتقد....؟ أنا الآن على بعد آلاف الفراسخ من بلدي أحارب في دنيا ليس لرجالي فيها أي مصلحة... أحارب لنشر الثقافة اليونانية لأرسخها وأُحضِّر العالم معي... فهل تعرف هدفًا أسمى من ذلك؟

وفي حركة مفاجئة انتفض الإسكندر وقال لي: «اخرج معي ننظر حول المعسكر»، فخرجنا ننظر حولنا من كل اتجاه، وكان في حقيقة الأمر منظرًا مخيفًا، فليل الهند الدافئ ورائحة الأخشاب تحترق لتضيء أو تطهو الأكل أو تسخن الماء لتضمد جراحًا يصرخ أصحابها من شدة الألم بعد عراك يوم طويل، وأصوات النحيب من كل ركن لأرملة أو ثكلى أو يتيم يبكي أباه.

وبينما نحن سائرون وجدت أحد الأطفال دون الرابعة يبكي لأن أمه منهارة على جثة أبيه وهو لا يعرف لماذا لا يتحدث أبوه معه!! فقرب منه الإسكندر وحمله وقال لي وهو يمسح على رأسه: هل يوجد سبب حقيقي يجعل هذا الطفل يتيمًا؟! ثم ضحك ضحكة هستيرية وقال: «أجل هذا ثمن العظمة والتقرب للآلهة».

أنا مستهزئًا: هذا ثمن عظمتك أنت يا أيها الملك الشاب!

الإسكندر بهدوء: لا، هذه ضريبة يدفعها كل يوناني ليتذكر العالم بلاده وما علمته للإنسانية.

أنا مبتسمًا: هل أنقذت حياة أبيك في معركة «جرانيكوس»؟

الإسكندر: نعم... وقد ظن البعض أنني كنت أريد أن أتخلص منه... ولكن هذا لم يكن حقيقيًا... فالملك لي ولا داعي لاستعجال قضاء الآلهة...

أنا: عندما مات والدك هل كنت عاقدًا العزم على غزو بلاد فارس؟

الإسكندر على الفور: نعم، منذ اللحظة الأولى وما كنت لأضيعَ دقيقة واحدة.

أنا: لماذا؟

الإسكندر: لقد حاول الفرس أن ينقضوا على الثقافة اليونانية في كل مناسبة تأتيهم، لقد حاول ملكهم «زيركسس» أن يضرب الحضارة اليونانية بجيش كبير فكانت معركة «ثيرموبلي» الشهيرة، ثم حاولوا مرة أخرى وهزمناهم هزيمة في المعركة البحْرية الشهيرة «سلاميس»، وقد ولَّدت هذه المحاولات وعمليات القتل قناعةً شديدة لدينا بضرورة القضاء على مصدر القلق لحماية بلادنا.

أنا: ولكنك صممت على تدمير ثقافتهم.

الإسكندر: لا، هذا غير صحيح... انظر حولك يا عزيزي، أغلب رجالي تزوجوا من فارسيات، نحن كسرنا ملكهم وهذه حقيقة، ولكننا لم ندمر ثقافتهم.

أنا: لا، الأمر مختلف تمامًا، فأنت دمرتهم بالفعل...

الإسكندر: غير صحيح، لو كان هذا هو الأمر ما كنت سمحت بالتزاوج بيننا وبينهم، وما كنت لآخذ ابنة ملكهم زوجة لي... هل هذا طبيعي؟

أنا: ولكنك سعيت لوضع برنامج لنقل الثقافة اليونانية إلى بلادهم والسيطرة عليهم.

الإسكندر: لا أنكر هذا... فلقد سعيت لذلك، ولو لم تكن ثقافة أرفع من ثقافتهم ما كانوا ليتركوا أجزاءً من ثقافتهم ويعتنقوا ثقافتنا... ثم استدار وضحك وقال: «هل تعرف يا مصري أنهم يعرفون أنني ابن إله؛ لذلك يخشونني ويهابونني».

أنا: ولكن التاريخ أثبت بعد موتك أن هذه البلاد لن تتغير، بل إنها عادت إلى ما كانت عليه خاصة بعد أن ضعفت دولتك على أيدي جنرالاتك.

انتاب الإسكندر حالة من الذهول وقال لي: إنك لا تعرف التاريخ... هذا غير ممكن.

أنا مبتسمًا: لنعد لفكرة والدك... من والدك بالضبط؟

الإسكندر: والدي واحد بأسماء متعددة، فهو له اسم مختلف عندكم في مصر.

أنا: لا، والدك هو فيليب المقدوني يا حضرة الملك.

الإسكندر غاضبًا: أيها الجاهل... ألست تعرف أن والدي هو «زيوس كبير الآلهة»؟... إن لم تكن تعرف ذلك فاغرب عني ودعني».

دخلنا عند هذا الحد خيمة الإسكندر، والذي أخذ يغمض عينيه ويفرك رأسه وشعره، ثم جلس وقال لي بصوت خافت مهموم: «من أنت؟ وماذا تريد؟».

أنا ضاحكًا: أنا بشر... وأريد أن أعرف عنك المزيد حتى يعلم العالم ما حقيقتك؟

الإسكندر بكل غرور: هل أرسلك والدي زيوس كبير الآلهة؟

أنا: لا، لم يرسلني، كما أنني لا أؤمن بوالدك.

الإسكندر منفعلًا ومقاطعًا: كيف تتجرأ على الإساءة لوالدي؟! والله لأجلدنك حتى تتعلم كيف تخاطب الآلهة، أو أدعو والدي ليصعقك.

أنا: أيها الملك الشاب... أنت لا تستطيع أن تؤذيني... ولكنك تؤذي نفسك ومن حولك بمعتقداتك... إن جزءًا كبيرًا من العالم أصبح بعد قرون طويلة يؤمن بإله واحد.. ولكن هذا لا يمنع باستمرار تعدد الآلهة لدى البعض الآخر.

الإسكندر: كيف تجرؤ على الانتقاص من الآلهة؟

أنا مبتسمًا: هذا أمر طبيعي، فعالمانا مختلفان!

الإسكندر: هل أنت من المستقبل بحق؟

أنا: نعم، وأعرف ما ستئول إليه؟

الإسكندر متعجرفًا: مسار أنصاف الآلهة معروف يا عزيزي، سأكون بجوار والدي يومًا ما فوق جبل أوليمبوس!

أنا: بل مدفون في مكان غير معروف.

الإسكندر: لأنني سأصعد بجوار والدي زيوس.

أنا: لك معتقداتك ولي معتقداتي.

أنا: لماذا لجأت لاقتباس بعض جوانب الثقافة الفارسية؟

الإسكندر: لأقرِّب الثقافات ليس إلا..

أنا: إلى الحد الذي يدفعك لأن تلبس لباسهم في بعض المناسبات؟

الإسكندر بعدم ارتياح: وما الخطأ في ذلك؟... أنا يوناني الثقافة، ولا أقبل أن أكون فارسيًّا، ولكني مؤمن بضرورة زرع الثقافات المشتركة كنوع من التقريب؛ خاصة أننا قد قضينا على القوة العسكرية الفارسية...

أنا: ولكن رجالك غير سعداء بذلك...

الإسكندر مبتسمًا: هل تعرف ما أنتوي عمله؟! هل أقول لك؟! ولكن لا تقل لأحد..

أنا مبتسمًا: قل.

الإسكندر: أنوي أن أزوِّجهم من فارسيات حتى تكون بذرتهم هي تقريب الشعوب تحت الراية اليونانية.

أنا مبتسمًا بخبث شديد: وعندما يعارضونك لأنهم غير راضين عنك؟

الإسكندر بعصبية شديدة: إنهم لا يرون البعد الذي أراه... وسوف يقبلون ولو استدعى الأمر استبدال قيادات فارسية بهم.

أنا: سيكون لك ما تريده.

الإسكندر مستغربًا: ليكن.

أنا: أنت قتلت اثنين من المقربين إليك لشبهة التآمر ضدك؟

الإسكندر بانفعال شديد: أنا الحاكم الشرعي؛ فقد ورثت الحكم عن

«فيليب المقدوني» ونسبي لكبير الآلهة، وهو فقط الذي يستطيع أن ينهي شرعيتي... ولو حاول أي إنسان أن يهز هذه الشرعية بمؤامرة دنيئة فسوف أنهي حياته مهما كان قريبًا لي.

أنا: عودة لسؤال مختلف... لماذا تزوجت «روكسان» ابنة الملك الذي هزمته؟

الإسكندر مبتسمًا: لماذا لا؟!... فلا يوجد ما يمنع ذلك.. ثم إنها جميلة.

قاطعته بخبث وابتسامة استفزازية قائلًا: كذلك صديقك «هيفستيون»!

الإسكندر: هو كذلك وأنا أحبه كثيرًا...

أنا: إلى أي حد أحببته؟

الإسكندر غير مبالٍ: إلى الحد الذي أحبه به... ففي عرفنا لا يوجد فرق بين حب الرجل والمرأة، وعلاقتي بـ «هيفستيون» أمر شخصي لي وليست مجالًا للتحدث.

أنا: هل تعرف أيها الملك الشاب أننا لدينا نظرية اسمها «عقدة أوديب»؟

الإسكندر مبتسمًا: قرأت عن «أوديبوس»، فما الأمر؟

أنا: هل يمكن أن تصف علاقتك بأمك على هذا النحو؟

الإسكندر: أمي امرأة خاصة بعض الشيء... فهي لم تكن سعيدة في زواجها بأبي، ولا تنس أنها من أسرة حاكمة وقوية، وكانت ترى في نفسها علوًّا ثقافيًّا وفكريًّا أكثر بكثير من زوجها فيليب، والذي تزوج ثماني نساء عليها، ولا تنس أيضًا أن مثل هذه الأمور تحدث عندما يختارها الإله زيوس له، وهو ما زاد من مشاكلها...

ثم ابتسم وقال: هل تعرف أنني تلقيت رسائل أمس من حاكم اليونان، والذي يعاني معاناة شديدة من أمي بسبب مواقفها المتشددة والمتدخلة في السياسة.

أنا: هل تحب أمك؟

الإسكندر ضاحكًا بكل ما أوتي من قوة: لا تسألني سؤالًا لا إجابة لي عنه... هل تحبها أنت؟

أنا مبتسمًا: لم أرها قط.

الإسكندر: يجدر بك أن تراها، ولكن احذر أن تقع في سحرها الروحي.

أنا: ماذا تريد من الحياة أيها الملك الشاب؟

الإسكندر ينظر فى أعلى خيمته في سكون شديد: لقد علمني أرسطو العظيم أن كل شيء في الدنيا لا يبقى إلا عند الآلهة يا أيها المصري.

أنا مبتسمًا: لك ما قلت بشأن الآلهة.

الإسكندر: كيف تعبد إلهًا واحدًا؟

أنا مبتسمًا: ألم يحدثك أرسطو عن نظرية المحرك الأول، والتي أثبت فيها الوحدانية؟

الإسكندر ضاحكًا: لا عليك، فلست من محبي التحدث في الفلسفة بعد الحروب.

أنا: إذن، ما المطلوب؟

الإسكندر رفع حاجبيه لأعلى ونظر إلى جرح في يده اليسرى وقال بهدوء: تسألني سؤالًا كنت أعرف إجابته حتى أشهر قليلة... أما الآن فلا أعرف

فيما تبقى من عمري ماذا سأكون عليه؟ ثم استطرد قائلًا بهدوء شديد: هل تعرف كم تبقى لي من العمر؟

أنا: ليس بالكثير.

نظر الإسكندر إلى الأسفل وقال بهم ثقيل: كنت أخشى هذه الإجابة منذ سنوات... ومع مرورها أصبحت لا تعني لي الكثير... هل تصدقني؟

أنا: نعم... ولكن لماذا؟

الإسكندر: هل لأنني ملكت العالم؟ ... هل لأنني زهدت في العالم؟... هل لأنني لا أعرف ما أريد فأنكر خوفي ومشاغلي بهذه الإجابة؟

أنا: أنت أدرى بها في نفسك.

الإسكندر: لا أعتقد... أنت أدرى مني بها، فهل تعرف ذلك؟

أنا: لا ... غير حقيقي.

الإسكندر: بل حقيقي... فأنت تعرف عني ما لا أعرفه عن مستقبلي.

أنا: من خلال أقلام غيرنا أيها الملك.

الإسكندر: وأنا صغير كنت متخيلًا أن الآلهة ستمنحني العمر المديد حتى أستطيع أن أنجز إرادتها مثل «أكيليس» أحد أبطال كتاب «الإلياذا» للكاتب هومير، ولكن الحقيقة غير ذلك تمامًا... إن الحقائق تتغير يا عزيزي مع الزمن... فلقد أنجزت ما أردت في أقل مما توقعت بكثير، فلم يعد يتبقى لي من الأهداف إلا قليلها.

أنا: ولكن..

الإسكندر مقاطعًا: هل تركتني يا سيد أقضي ليلتي في خيمتي أفكر فيما لم أفكر فيه من قبل.

أنا بفضول: هل تتأمل الموت؟

الإسكندر: نعم... فلقد وضعتني في مواجهة الموت والفكر فيه، لعَلِّي أستطيع أن أتفكر فيما هو أنفع من المجد والعظمة عبر الجيش والقتال وإزهاق الأرواح والخراب وبيع أطفال المهزومين في العبودية.

أنا: لعلك بذلك تفيد البشرية في شيء!

الإسكندر: أعتقد أنك تعرف ما أنتويه.

أنا: نعم... فأنت تريد أن تبني جسورًا بين الثقافات لتبقى ذكراك أكثر من مجرد فتوحات ومعارك.

الإسكندر: لقد عشت مقتنعًا اقتناعًا لا رجعة فيه أن ثقافتنا هي الثقافة العُلْيا في الحياة، وأنها غير قابلة للاختلاط، وأن سُمُوها يمنعها من ذلك، ثم أدركت أن هذه نظرة قاصرة، فالحضارة والفكر والثقافة الفارسية لا تقل قيمة عنا، فلماذا إذن كل هذا الدم...أوَ ليس الأجدر بنا أن نخلط الدم بالزواج والتزاوج الجسدي والفكري؟

أنا: وهو ما ستحاول عمله في الفترة القادمة.

الإسكندر مهمومًا: لقد بدأت بالفعل.

أنا: .... لعلها تكون بداية لمفهوم جديد بتزاوج الثقافات يا أيها الملك الشاب...

الإسكندر وهو يضع يديه على وجهه ويريح جسده الجريح على أريكة في خيمته يقول بهدوء شديد: هلا تركتني ونفسي...

خرجت من خيمته وسط الجو الخارجي الكئيب، ونظرت نظرة أخيرة إلى الملك الشاب وهو يعاني من تقلبات الحياة والفكر والمزاج، ويتألم منها ولم يكن الملك الشاب يعرف أن ما تبقى له من الزمن قليل لا يتخطى سنوات معدودات، فها هو يتألم أكثر من غيره بسبب اضطراباته النفسية العميقة التي ولدتها أمه وعلاقتها بأبيه، وحالة الفوضى الفكرية في البحث عن شخصه وسط الأمثلة العليا والطموحات وأنصاف الآلهة، فها هو يبحث عن دور وهوية روحية لم يعرفها إلى اليوم الذي مات فيه مستسلمًا لضعف الروح والفكر، بعدما نهشت الحمى جسده.

لقد مات الإسكندر في أراضي العراق في 323 ق.م. ودفن جثمانه هناك إلى أن تم نقله إلى مكان آخر يقال إنه الإسكندرية، وكما كان متوقعًا فقد تم قتل زوجته «روكسان» وابنه منها حفاظًا على العرش اليوناني، ومع ذلك فقد انهار حلم الإسكندر، وتعرضت فكرة الثقافة الموحدة المختلطة ذات العناصر الأخرى للعوامل الإنسانية الطبيعية ولمجريات السياسة، فتفتتت الإمبراطورية تمامًا ولم يبق منها إلا ذكريات فتوحات هذا الملك الشاب والظلال الثقافية اليونانية إلى يومنا هذا.

خالد
بن الوليد

خالد بن الوليد

وقفت أتأمل الجامع الجميل والبسيط لخالد بن الوليد الذي يحمل رفات هذا البطل الفاتح والقائد المغوار ابن مكة وذي النسب العالي من بني مخزوم إحدى أقوى عشائر مكة، هو ابن الوليد بن المغيرة، والذي يقال إن الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ نزلت فيه؛ لأنه كان يستكثر نزول الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام لاعتقاد بعضهم أن الوليد كان أفضل نسبًا منه.

وفي هذا المسجد المتواضع تتجمع رفات هذه الأسطورة العربية التي لم تتكرر حتى الآن، لا مع صلاح الدين ولا بيبرس ولا قطز ولا أحد، فخالد هو خالد، ولكن بعد كل هذه العظمة والعبقرية فالرجل كان يعيش حياة كريمة وفرتها ثروة عائلته أو ما كان يحصل عليه من غنائم في حروبه، فيقال إنه حصد في إحدى المعارك قلنسوة بلغ ثمنها مائة ألف درهم بعد أن صرع القائد الفارسي الذي كان يلبسها في مبارزة فردية، ولكن كل هذه الأموال تلاشت بدرجة كبيرة.

وقد تجمعت كل هذه الأفكار والمشاعر بداخلي حتى تخيلت خالدًا

سيفَ الله المسلول يحدث خيالي ويداعب عيني ويضعني على نقطة التماس بين المعقول واللامعقول، فرأيته يقف بشموخ الفاتحين أمام عيني وأنا جالسٌ، فكان وجه الرجل يبعث الرهبةَ والقوةَ اللتين تخيفان أي شخص، فالرجل عريض المنكبين، وعلى وجهه بقايا آثار الجدري داهمه في الصغر، أما لحيته فتدلت من الذقن إلى منتصف الصدر، ويداه الكبيرتان كانتا مصدر قلق لمتأملهما، تُرى كم من السيوف حملتها هاتان اليدان؟! وكم رقبة أطاحت بها هاتان اليدان لتقطف الأرواح وتفرقها عن أجسادها؟ تُرى كيف كان شعور مبارزيه ووجهه العنيف كان آخر شيء يرونه قبيل وجه ملك الموت مباشرة؟!، فهذه تأملات لا تخرج إلا في حضرة جنرال العرب الأول والأخير، فلما جلست أمام قبره، رفع الرجل حاجبيه وأدار جنب وجهه، وقال بكلمات مقتضبة كما كانت عادته بلسان فصيح: من أنت رحمك الله؟

تجاهلت السؤال واندفعت قائلًا: هل تعرف يا سيف الله قيمتك في التاريخ العسكري؟

خالد: القيمة لله يهبها من يشاء وينزعها ممن يشاء...

أنا: ولكن لا يخلو شارع أو زقاق أو حي من اسمك، فلا يوجد جيش عربي إلا وكان اسمك على أحد ألويته.

نظر إليَّ خالد بجزع وقال: ما هذا اللسان الذي لا أكاد أفهمه؟

نظرت إليه باسمًا وقلت: لا، هي اللغة نفسها ولكنها تطورت بعض الشيء لتشمل كلمات جديدة... هل لي بسؤال؟

هز الرجل رأسه بشموخ وقال : سل ما شئت.

أنـا: يقال عنك إنك قلـت لصاحبك إنك تمنيت الشـهادة فلم يمن المولى بها عليك؟

نظـر خالـد إليَّ نظـرة ثاقبة وقـال بهدوء: صدقـت، ولكن كيـف عرفت هذا؟... لقد قال لي أحد الأصحاب إن هذا بعيد المنال، فكيف يُغمد سـيف الله المسلول على أيدي أهل الشرك؟!... ما كان الله ليخلف وعده، وما عساه ينقض عهده، فلا يكسر سيف المولى إلا المولى.

قلت له: ولكن هذه أمنية أهل الصحابة والريادة والمؤمنين؟!

خالد مقاطعًا: ما علمت أن نعمته سبحانه في حياتي كانت منعًا للشـهادة لي ولكنها مشيئته سبحانه وتعالى... غفر الله لي ولك.

أنا: أولم يُستشهد الكثير من المسلمين على يديك في غزوة أحد؟!

خالد بضيق واضح: كنت في جاهلية من أمري... أما وقد كرمهم الرحمن على يدي وغفر لي، فلا تضربن جرحًا داواه الألم وعفا عنه الرحمن.

أنا: ماذا حدث في غزوة أحد؟ صفْ لنا المعركة.

خالد: كانت الغلبة للرسول ﷺ والمؤمنين، وكان معي رهط من المشركين نتحين اللحظة المناسـبة، وبعد أن شاهدنا المسـلمين يهزمون قريشًا ويسلبون الغنائم، تركوا ميمنتهم بلا صاحب، فخرجوا على أمر الرسول عليه الصلاة والسـلام، فأتيناهـم من خلفهم عـلى صهوات الجيـاد، فحاصرناهم وكانت

لنا الغلبة على القوم المؤمنين، والله ما ندمت على نصر إلا هذا؛ فلقد هزمت جيوش الرسول عليه الصلاة والسلام، غفر الله لي ولهم.

أنا: بماذا كنت تفكر أثناء المعركة؟

خالد: بالنصر فما غيره ننشغل به... فلقد كنت دائمًا على يقين بأن التوقيت للقائد العسكري كالريح للسفن، إما أن تضع الريح في شراعك فتسير وإما تحطمك الريح فتغرق... فلقد انتظرت وتحينت الفرصة المناسبة بمجرد أن رأيت الخطأ... الله الله.. أقول لك، خطأ الجيش بألف رأس!

أنا: لنبدأ من البداية... أنت من بني مخزوم، أكبر عشائر قريش ووالدك الوليد بن المغيرة كان من عِلية القوم... هل أثر هذا في شأنك؟

خالد وأمارات العنف على وجهه: ويحك... ما كان الله سبحانه أن يجعل سيفه منسوبًا... فالانتصارات لا تولد بالأنساب. وحسبنا أن نقول: إن النصر من عند الله وليس للأنساب شيء فيه.

أنا مقاطعًا: ولكنك كنت دائم الفخر بنسبك، أولم تكن أنت صاحب صرخات «أنا المحارب الصنديد... أنا خالد بن الوليد»، أو قولك «أنا ابن أشياخ وسيفي السخت...أعظم شيء حين يأتيك النفت»؟، وهي عبارات تنم عن الاعتداد بالنسب.

خالد بحدة وعنف شديدين: ألم تأتك مقولة النبي ﷺ وهو يقول: «أنا النبي لا كذب...أنا ابن عبد المطلب»؟! ويحك، تنهرنا لما أنت به جاهل، والله لأهشمن رأسك لو أكملت الأمر، أنت لا تعرف العرب، كما أنك لا تعرفنا، فهذا كلام نتحمس به وقت الشد على الأعداء، وكلام نهز به أعداء الرحمن.

أنـا: لماذا تغضب يا سـيف الله... ففي زمني نسـتطيع أن نسـأل قيادتنا ما نريد وبحرية تامة؟!

خالد: ما كنت لأسمح لرجالي برد الكلمة مادمت حسمت أمري...وإلا فارقت القيادة.

أنا: لماذا تأخر إسلامك يا سيف الله؟

خالد: لا، كنت قد حسـمت أمري بسـماعي رسول الله ﷺ، وقد ترددت كثيرًا على أن أصبأ عن دين أجدادنا، فهو جزء منا كبرنا عليه... ولكن عذوبة القرآن وسـماحة الرسول عليه الصلاة والسلام ورقة الصحابة جعلتني أنظر لـما لا تنظر به العين، ولكن بما يسـترق له القلب، خاصـة أن الصادق الأمين كان رجلًا رحيمًا، له من حب الناس ما لا يحصى...

أنا:هل كنت تعلم أنك ستكون سيف الله والفاتح العظيم؟

خالد مُسْـتَفَزًّا: مـا كان أحد ليعـرف أن الفتوحات قادمـة أو أن لي إمارة الجيوش، وما كنت لأعرف أنني سـأكون سـيف الله المسلول! فلقد أتت هذه الكنية متأخرة، كما أن القيادة كانت بأسـبقية الدخول في الإسـلام، وما كنت إلا جنديًّا لله ورسوله.

أنا: كيف سُمِّيت سيف الله؟

خالد مبتسـمًا: والذي نفسي بيده ما عسـاي أنسـى هذا اليـوم... كنت في غزوة مؤتة في العام الهجري الثامن، وكنا تحت إمرة زيد بن حارثة فاستشهد، فأمّرنا جعفر بن أبي طالب فاستشـهد، ثم أمّرنا عبد الله بن رواحة فاستشهد،

وكان عليه الصلاة والسلام قد أمرنا باختيار قائدنا لو مات الثلاثة، فإن مات فلانٌ فإن نال الشهادة فالأمر لنا نؤمِّر علينا نفرًا منا، وقد أُمرت على الجيش باختيارهم وما كنت بطالب للإمارة.

أنا: هل هُزم المسلمون في مؤتة؟

خالد: لقد فاق العدو عددنا وعتادنا بكثير، وما كان لنا في النصر نصيب، ولكن الهزيمة لم تلحقنا، وما تركنا ركنًا لهم إلا حاربناهم عليه... وقد كان عليَّ أن أعيد للمسلمين جيشهم، فالهزيمة ليست خيارًا، وهنا كان عليَّ أن أتدبر، فعملت بقوله عليه الصلاة والسلام: «الحرب خدعة»، فأخرجت القوم ليلًا حتى يأتونا في الصباح بغبار وخيل حتى يظن العدو من الروم والعرب أن المدد أتانا، ثم قمت بتحريك المؤخرة نحو المقدمة، واستبدلت الميسرة بالميمنة، فظنوا أن المدد جاء، وهنا سحبت الجيش حتى لا يدمرنا عدو فاقنا عدةً وعتادًا.

أنا مكررًا سؤالي: كيف سُمِّيت سيف الله؟

خالد باسمًا: عندما عدنا من مؤتة هاجمنا القوم واتهمونا «بالفُرَّار» فأكد الرسول ﷺ أننا الكُرَّار بإذن الله وأُطلق عليَّ لقب سيف الله المسلول.

أنا: هل لي أن أنقل للقارئ لغة لا تشق عليه؟

خالد: الله الله في لغة القرآن والبيان، فما بالنا نستبدل ما أقره الله في كتابه العزيز بلغة أخرى؟

أنا: حتى يفقه قولك يا سيف الله.

خالد: ما ظننت يومًا يأتي يكفُر فيه العرب بلسانهم قبل إيمانهم.

أنا: لا كُفر في لغة ولا دين.

خالد: أمركم متروك لكم.

أنا: هل كنت تخشى ملاقاة المسلمين بعد انسحابك من مؤتة؟

خالد: ما كان لقائد أن يسحق جيشه خوفًا من قوم لا يعرفون عن الحرب إلا قليلًا... لقد فعلت ما كان مقصودًا لي وهو حماية المسلمين وليس فناءَهم.

أنا: ولكن أهل المدينة استقبلوكم بالسخط والعار وفارقت النساء أزواجهن بسبب هذا الانسحاب.

خالد مستفزًّا: ما كان انسحابًا، أولم تسمع عن قوله ﷺ فينا: «بل هم الكُرَّار بإذن الله»... ما عساي أن أفعل؟! أوليس حماية الجيش أفضل من استشهاده ونحن على أعتاب حروب تفوق طاقتنا؟! لقد أنقذت جيشًا بدلًا من إهلاكه.

أنا: هل أطلق المصطفى ﷺ لقب سيف الله عليك لهذا؟

خالد: إي والله وما أعذبَ اللحظاتِ!! ما كنت لأعرف شقائي بها إلا بعد أن حرمني المولى من الشهادة بسببها.

أنا: هل كان لهذا اللفظ أثره في حياتك؟

خالد: إي والله... فلقد ظن البعض أن الله منحني سيفًا من السماء فما التقيت أحدًا إلا جندلته، وما لقيت قومًا بسيوفهم إلا انكسروا على يدي، وأذكر في معركة اليرموك أن شخصًا خرج لمحادثتي، فظننته يريد المناجزة، فالتقيته أمام

الجيوش فسألني عما إذا كان الله قد أودع لي سيفًا أستعمله على الكفار، فضحكت كثيرًا ورويت له ما حدث، فسألني عن الإسلام فأجبته، ثم أسلم على يدي وعاد إلى صفوف المسلمين مقاتلًا في سبيل الله، فمنَّ الله عليه بالشهادة.

أنا: فكيف تشعر؟

خالد: أنا لا آبه بمثل هذه الأمور اللهم إلا لو كانت ظلًّا للإسلام أو مغنمة في حرب.

أنا: تورد الكتب أنك كسرت أصنام الكعبة وأن الشيطان تجسد لك فيها؟

خالد: كيف للشيطان أن يواجهني بعد أن هداني الله للإيمان؟!... فلقد هشمت العزى بسيفي ومعها شيطانها.

أنا: حروب الردة كانت أصعب المعارك التي خاضتها الدولة الإسلامية، أليس كذلك؟

خالد متذكرًا: والله ما كنت أخشى في معاركي أكثر منها حتى لا ينكسر أمر الإسلام ويضيع أثره، فلو نظرت إلى هذه الحروب لوجدت أن وضع الدولة الإسلامية كان في خطر، وأي خطر؟! فمسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي وسجاح ومالك بن نويرة، كلهم يمثلون خطرًا على الدين.

أنا: ولكنك كنت قاسيًا في تعاملك معهم؟!

خالد متحمسًا: وماذا نفعل فيمن كره الدين وحاربه وارتد عن سلطان المدينة؟ نعامله بالحسنى وهو يحاربنا؟!... إننا نواجه عدوًّا مسلحًا فليس

العفو خيارًا ولا الرحمة مجالًا... هؤلاء ارتدوا بعد إسلامهم فلم يصدق إيمانهم من الأساس.

أنا: فهل يستحقون ما حدث لهم؟

خالد منفعلًا: لقد عهدوا فخانوا، وبغوا وافتروا على الله كذبًا، وهؤلاء لا شفقة لهم عندي ولا دم عندنا، فهل أشرك الله الكذاب مسيلمة في أمر رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام؟! ما بالك تقول هذا؟! أفلا تحمون الإسلام في عهدكم؟!

أنا مبتسمًا: واقعة مالك بن نويرة .. ماذا حدث؟

خالد: إن مالكًا كافرٌ مرتدٌّ... نحن لا نقتل رجالًا لندخل بنسائهم، ليست هذه شيمة سيف الله... إن مالكًا كان قد منع الزكاة، كما أنه تحالف قبيل وصولي إليه في البطاح مع سجاح المتنبئة، والتي تزوجت فيما بعد من الكذاب مسيلمة، وقد وضحت نيته بما لا يدع مجالًا للشك، فاتخذت القرار.

أنا: ولكن هناك من يقول إنه صلى خلف المسلمين عندما ناديتم بالصلاة؟!

خالد: وقد حدثته لأعرف منه لماذا منع الزكاة، فلقَّب الرسول ﷺ في مجمل رده بلفظ «صاحبك»، وهذا دليل على عدم إيمانه... فهو ليس صاحبي ولكنه رسول الله ﷺ، كما أن عقد الحلف مع سجاح لم يكن حمايةً لراية الإسلام ولكن لكسرها... ما عساكم أن تشككوا في هذا الأمر.

أنا بابتسامة خبث: وزوجته؟

خالد: وما في الأمر؟! هي من سبايا الحرب.

أنا: ولكن ...

خالد مقاطعًا: الرجل كفر وكذب وتآمر، وهذا جزاء المتآمرين على دين الله.

أنا: ولكن ألم يقل فيك الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بنُ الوليد» في أمر مماثل لهذا؟

خالد منزعجًا: ويحك يا رجل... تقول ما لا علم لك به، لقد كان هناك سوء فهم؛ فلما أرسلني المصطفى إلى بني جذيمة كنت قد فهمت أن صبأهم يعني ردتهم... وهم يقصدون إسلامهم، لقد كان هذا من قبيل الخطأ ليس إلا.

أنا: إلى معركة اليمامة إذن... لماذا كدت تُهزم في هذه المعركة ضد مسيلمة الكذاب؟

خالد: كدنا ننكسر لأسباب تتعلق بتحركات داخلية غير منضبطة (تكتيكية)، فقوات مسيلمة كانت تفوقنا عدة وعتادًا ونحن المحاربين لم نكن منظمين بالقدر المطلوب.

أنا: في علم الاستراتيجية الحديث فإن المهاجم لابد أن تتوافر له كثرة عددية تصل إلى معدلات ثلاثة رجال لكل رجل مدافع.

خالد ضاحكًا بكل عمق: هذا كلام أحمق... لو صح هذا لما خرج جندي واحد من المدينة ليحارب في أي منطقة؛ ثم انفجر في الضحك مجددًا وقال: «... لم يحظ الجيش الإسلامي في عهدي بأي كثرة عددية، فنحن كنا الأقلية العددية ولكن الأكثرية بإيماننا...».

أنا: وفي حالة مسيلمة؟

خالـد: كنا ثلاثـة لواحد، رجل منا يحارب ثلاثة منهـم... وكانت معركة طاحنـة؛ انكسر لواؤنا في منتصف اليوم بشـكل ملحوظ فتراجعنا إلى ما بعد خيامنا، ولولا ستره سبحانه فقد ألهاهم نهب معسكرنا، ولولا هذا ما مُنحت لنا الفرصة لنجتمع مرة أخرى لنعاود القتال...

أنا: ولكنك غيرت تشكيلك...

خالد مبتسـمًا: نعم فلقد جمعت الرجال كل رجل وسـط عشيرته وأهـله، وهــو ما منحهم وحـــدة صـف ورغبة ملحة في الظهور والتفاخر، ثم عند هذا الحد عدنا مرة أخرى لنهاجم القوم المرتدين فكانت لنا الغلبة، فانسحبوا إلى «الحديقة» التي احتموا بأسـوارها، وحمدًا لله اسـتطعنا أن ندخلها فيما بعد وهزمناهم ومزقناهم إربًا.

أنا: صف لنا مسيلمة.

خالد مشـمئزًا: قصيرٌ دميمٌ، وكثيرًا ما كان يسجع محاولًا أن يصبو لقامته عليه الصلاة والسـلام، ولكن دون جـدوى، ثم إنه كان ينتحي بوجهه جانبًا حتـى يخدع قومه بأنه على وصال مـع جبريل؛ ثم نظر إليَّ خالـد وقال: «هل سمعت نثر الكذاب ليسحر المتنبئة سجاح؟».

أنا: قرأت عنه.

خالـد: قـال دميم الأمة.. «ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى.. أخرج منها نسمة تسعى»... فصدقته الكاذبة الأخرى، فتزوجها وعادت لقومها.

أنا: وماذا عن خديعة مُجاعة بن مرارة؟

خالد ضاحكًا: والله ما حاك لي أحد خديعة مثل هذه، فلقد أقنعني الرجل بعد معركتنا أن مسيلمة أخرج لنا طلائع جيوشه فقط، فأخذني مُجاعة إلى حصنهم المنيع فرأيت رجالًا ملثمين في كل ركن، وما كان من الممكن أن نحارب ونحن على ما نحن عليه من تعب ووهن بعد معركة طاحنة... فعقدت له العقد وحقنت مالهم ودماءَهم وأولادهم ونساءَهم، فإذا بي أفاجأ بأنهن نساء ملثمات... خدعني الرجل فخُدعت، ولكنني كنت قد عقدت العهد فلما عبرت له عن غضبي قال لي إنهم قومه فعذرته.

أنا: وهل حاولت أن تتزوج أخته فيما بعد؟

خالد مستغربًا: وما في ذلك؟

أنا: كيف كانت حالة الحرب مع كسرى... ما سمات هذه الجيوش؟

خالد: هي جيوش قوية للغاية في العدد والعتاد، ولكنها بطيئة الحركة بسبب ثقل المعدات، كما أن قدرتها على المناورة كانت محدودة بحكم بطء الحركة... ولكنها كانت ذات بأس شديد وكان لها خبرات واسعة في الحروب.

أنا: كيف سارت الجيوش الإسلامية؟

خالد: كانت بداية الصدام في معركة شهيرة في كاظمة، وقد هزمنا الجمع منهم، ثم سرنا فيما بعد إلى معركة ذات السلاسل ثم معركة نهر الدم.

أنا: لماذا سميت هذه المعركة معركة نهر الدم؟

خالد بشيء من عدم الارتياح: لأن قتلى الفرس كانوا كثيرين.

أنا: وهل أنت الذي قلت: «والله الذي لا إله إلا أنت لو ملكتني أكتافهم لأجرين نهرهم بدمائهم»؟

خالد بكل فخر واعتزاز: نعم...

أنا: وهل كنت تقصد ذلك؟

خالد: نعم أقصد كل كلمة، وقد صرخت في جيشي وأنا على جوادي وقلت لهم «الأسر الأسر»، ولما أسرناهم ضربت أعناقهم في نهرهم حتى صار نهرهم يجري بدمائهم.

أنا: ولكن القتلى كانوا كثيرين.

خالد: وما الحرب إلا قتالًا ودمًا.

أنا: ولكنهم أسرى؟

خالد: لقد كنا نحارب ونقتل منهم الآلاف، ولكن نفاجأ بفلولهم ينضمون للجيوش التالية، فتزيد أعدادهم علينا بما لا طاقة لنا به، هل تتخيل.. كل يوم يزيدون فيه علينا فأحاربهم فيسقط منا الشهداء الواحد تلو الآخر؟! كما أن جيشي أصبح يعاني بقوة بأس هؤلاء، فما كنت لأستطيع أن أواجه مثل هذا الأمر إلا باتخاذ إجراء شديد أمنع به التأثير السلبي علينا.

أنا: بقتلهم في نهرهم؟!

خالد: إنها الحرب... ثم إننا أنذرنا القوم ألا ينضموا للجيوش المتعاقبة فغدروا وعدهم... فما كان إلا أن نواجه هذا العصف المتتالي ببطش متناسب.

أنا: أولم تشعر بالأسى وأنت تقطع رقابهم؟!

خالد بثبات: لا... كنت أشعر بالأسى عندما أدفن شهداءَنا الذين ماتوا لكثرة أعداد أعدائنا.

أنا: قبل الانتقال إلى الحرب مع الروم... ما كان تقييمك للوضع في فارس بعد آخر معركة لك هناك؟

خالد مبتسمًا: لقد بترنا عزيمتهم وكسرنا قوتهم... والواقع أن من أتى بعدنا رغم عظمتهم، فإن الوضع كان ممهدًا لهم فأهم ما في الأمر أن الفرس انكسروا، وما كانت لتقوم لهم قائمة بعد ذلك، ولما أتى سعد بن أبي وقاص بعد ذلك ودخل المدائن فإنه بنى على ما قمنا به من جهد.

أنا: هل غامرت بالمسلمين وكدت تغرر بهم بعدما أمرك الخليفة بالتوجه إلى الجبهة الغربية لأخذ الطريق المجهول إلى بادية السماوة... فهل في هذا الأمر بُعد استراتيجي؟

خالد: ما كان الله ليكسر سيفه ويهلكه عطشًا في بادية السماوة يا رجل... كما أن الإيمان كان يملأ قلوبنا وما الإيمان إلا من عند الله... فالحرب مغامرة ومغنمة... وقد كانت الجيوش في حاجة ماسة إلينا وما كان لنا أن نتأخر.

أنا: عندما وصلت إلى الشام، كيف كان شعورك وأنت تتولى قيادة جيوش المسلمين هناك بعد أن كسرت الفرس؟

خالد: كنت أفكر فيما يجب فعله للتخلص من قبضة هرقل على الشام، فارتأيت أن أجد وسيلة لمنح الجيوش الإسلامية الميزة بسبب ضعف حجمها، وبالفعل رحمنا الله وبدأنا نجهز الأمور لهذه المواجهات القادمة.

أنـا: لقد دأبت على دخول معركة بعد أخرى... من أجنادين إلى فحل إلى فتح دمشق، ماذا حدث في فتح دمشق؟

خالد: أعرف سـبب سـؤالك... لقـد حاصرنا القوم، ثم اقتحمنا أسـوار المدينة وأعملنا السيف فيهم... ففوجئت بأمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح يقول لي إنه صالح القوم فلا مغنمة لنا ولا شيء بعد أن فتحناها بحد السيف!

أنا: كيف حدث ذلك؟

خالـد: كنا قد فتحنا المدينة من باب فلما رأى القوم ذلك ذهبوا على الفور إلى أبي عبيدة بن الجراح، والذي كان لين القلب، وكان موجودًا في أقصى بوابة المدينة الأخرى، فصالحهم دون أن يعرف أننا فتحنا المدينة بحد السيف.

أنا: ولكنك نهرت أبا عبيدة وعنفته؟

خالد: ما كنت أعرف بعد أن الخليفة الجديد عمر بن الخطاب قد عزلني... فهو لم يقل شـيئًا غير أنه طلب مني ألا أحقر من شـأنه أمام المسـلمين بعد أن أعطى عهده.

أنا: كيف تلقيت خبر عزلك؟

خالد: ما كنت لأظلم نفسي بالخروج عن طاعته وطاعة الله، غفر الله لي وله.

أنا: ما سِرُّ الاختلاف في وجهات النظر بين الخليفة وسيف الله؟

خالد مقاطعًا: ويحك! فلا تقل عن الفاروق ما قد أختلف فيه معك، فقد كانت له رؤيته وكان لي مرارة العزل...

أنا: ألم تكن تلقبه بـــ «الأعيسر»؟

خالــد مبتســمًا: نعــم لأنــه كان يســتخدم يــسراه، وليــس العسر منســوبًا للعسرة... أنت تحتاج لدراسة اللغة ومشتقاتها...

أنا: لكنك لم تترك الجيوش وأبيت إلا أن تستكمل مشوارك كجندي عادي؟

خالد: أجل... وهو ما فعلت.. رحم الله أبا عبيدة، فلولاه ما سمح لي أن أستمر كجندي.

أنا: ولكن أبا عبيدة ترك لك القيادة في معركة اليرموك؟

خالــد ضاحكًا: نعــم فالرجل كان من المبشرين بالجنــة لا بالحروب، وقد ترك لي شأن الحرب بعد أن قلت له أن يقول للرجال أن يسمعوا مني.

أنا: لماذا تأثرت عندما ضاعت قلنسوتك يا سيف الله؟

خالد مبتســمًا: كيف عرفت هذا؟ ثم ابتســم وقال: أنت تعلم الإجابة وما كنت لأتخيل أنها وردت إليكم في الكتب... هذه القلنســوة كان بها شــعيرات من رأس الرسول عليه الصلاة والسلام عندما حلق شعره في حجة الوداع... ولم تفارقني هذه الشــعيرات طوال عمري، ومــا كنت لأدخل أكبر معركة في تاريخي وأنا فاقد القلنسوة وذكرى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

أنا: كيف كانت الاستعدادات؟

خالــد: لقد كان العدو يفوقنا بثلاثــة إلى أربعة أضعاف على الأقل... عند هــذا الحــد آثرت أن أختــار أرض المعركة أولًا، كما هو عهــدي، ثم بعد ذلك

قررت أن نتحمل ضرباتهم اليوم بعد الآخر حتى نكسر ثقتهم بالنصر... وهذا ما يحدث عندما تحارب جيشًا أقل منك عددًا، فبعد بضعة أيام من الحرب ينتابك شعور بعدم الثقة والانهزام الداخلي.

أنا: هل تعرف أنهم يسمون هذا في علم الاستراتيجية اليوم «كسر عزيمة العدو»؟

خالد: استراتيجية، وما الاستراتيجية هذه؟

أنا: فنون الانتصار في الحرب.

خالد: ما أغربكم!

أنا: ماذا حدث في المعركة؟

خالد: كانت معركة صعبة للغاية، لا قِبَلَ لأحد بها... لقد أتى علينا الروم من كل جانب وكادوا يكسرون ميسرتنا مرارًا لولا صلابة جأش المؤمنين، حاولوا من كل اتجاه دون فائدة... صبرنا وكانت التعليمات هي الثبات، وقد حاربت النساء معنا وكان لهن دورٌ مهم، وكنت أقول للجميع أمهلوهم ثلاثًا، وفي اليوم الرابع جاء دورنا للهجوم عليهم فمزقناهم إربًا، ولولا سترُ المولى عز وجل لانكسر لواؤنا.. ولكن هذا لم يحدث.

أنا: ماذا عن الملقب بـ «عزازير» والرجل الذي أسلم؟

خالد ضاحكًا: الأول جندلته والثاني هديته... فالأول سموه على اسم ملك الموت وكان يخشاه الجميع، فأرسلت له ملك الموت عن حق، أما الثاني فخرج إليّ ليسألني عما إذا كان الله قد منحني سيفًا من السماء حتى أصبحتُ سيف الله المسلول، فشرحت له ديننا فدخل فيه واستشهد وهو مع الأبرار.

أنا: معركة اليرموك كانت أكبر معركة لك، وبعدها اعتزلت تقريبًا.

خالد مقاطعًا: والذي نفسي بيده... لو أردت الملك لنلته، ولو أردت المجد لما استطاع أن يشب لي أحد، ولكن الله سبحانه رحمني والرسول ﷺ هداني، وما كنت لأخالفهما بعد الهداية.

وعند هذا الحد انخرط سيف الله في البكاء حتى أغرقت الدموع لحيته الطويلة وقال بتأثر شديد ووجَّه كلامه لي قائلًا: أبكيت سيف الله يا رجل، ولو كنت قد أردت أن آخذ الملك لسرت إلى المدينة بخيل الزحف وعلى ميمنتي وميسرتي رجال لا يعرف الشيطان طريقًا لقلوبهم ولا يعرفون معصيةً لي... ولكن ما كنت لأخزي من هداني، ولا أن أخذل من خلقني ولا أن أكسر رأي الأمة في الفاروق رضي الله عنه.

أنا: لماذا كنت تحب ضرار بنَ الأزور؟

خالد متذكرًا: كان قائدًا عظيمًا يعرف كيف يقلب المعركة لصالحنا، كما أنه جسور وقوي البنيان، وبالمناسبة أخته خولة بنت الأزور كان لها دورها، وقد كنت أمنحه قيادة «خيل الزحف» وهو أعتى تشكيل حربي رافقني في معاركي الحربية.

أنا: ما الفكر العسكري الثابت لديك يا سيف الله؟

خالد: لقد كنت دائمًا أختار أرض المعركة وأدرسها، وهذه أهم خطوة لي، ولو لم تتح لي الظروف ذلك كنت أختار بقعة مناسبة يصطف فيها جيشي، ثم كنت أدرس نقاط القوة والضعف، فحرب العرب ليست كحرب الفرس والروم؛ فالعرب يتحركون بقوة وقدرتك على تثبيتهم صعبة، فلابد من رفع

قـدرة الجيـش على المناورة والكر والفر... إلخ، أمـا الجيوش الأخرى فكنت دائمًا أستخدم ثباتها ضدها وأُفعِّل من حركتي.... وعند بدْءِ المعركة كنت أبدأ بالمناجـزة مـع قائد الجيش... فكنت أطلب من قيادتـه المبارزة وكنت أحاول أن أجعلهـا أيضًا بـين قيادات القلب والجناحين ضد قلـب وجناحي العدو، وعندما نصرعهم كنت أشن الهجوم مباشرة حتى قبيل أن يأخذوا جثثهم من أرض المعركة وذلك حتى أكسرهم... وكانت هذه الخطة دائمًا ما تنجح.

أنا: لقد تعددت زوجاتك .. أليس كذلك؟

خالد مستعجبًا: نعم، وأنا لم أخالف شرع الله ورسوله... ما كنت لأفعل ذلك.

أنا: ولكن بعد المعارك كنت تسعى دائمًا للنساء ؟

خالـد ضاحـكًا: وقبـل المعـارك أيضًا، ومـا في ذلك؟! ألا يحـب الرجال النساء عندكم في زمنكم؟!... نعم أحب النساء.

أنـا: ألم تشـعر بالمـرارة وأنـت على فـراش الموت تمـوت كأي إنسـان من المرض؟

خالد مسـتغربًا: لقد شـكك البعض فيَّ... ولكنني أصدقك القول بأن الله مماتي، فما تأخرت سـاعتي لحظة وما تقدمت، كما أنني لم آخذ من الدنيا إلا ما كتبه لي ربي سبحانه وتعالى، أما وقد ميزني بكنيته فما لي أن أطلب غير ذلك.

ثم بادر خالد بالقيام وهو يقول: «لو أني عشت مرة أخرى ما غيرت قرارًا ولا خالفت شرعًا، قم رحمك الله ورحمنا».

باشا مصر
محمد
علي

باشا مصر محمد علي

انتشرت جملة «باشا مصر محمد علي هيحارب الإنجليز» في كل أرجاء مصر في 1840م، فالكل يتداولها، الكل يردد كلمة الباشا «الأجنة في بطون أمهاتهم ستحارب الإنجليز»، ولم لا؟ فقوات الدول الأوروبية المتحالفة ومعهم الدولة العثمانية المتهالكة طردت القوات المصرية من الشام بعد هزائمَ متتاليةٍ، وها هم يستعدون لدخول مصر بالقوة العسكرية، فالأسطول البريطاني يحاصر السواحل المصرية خاصة الإسكندرية، ويوسف بوغوص يتفاوض مجددًا مع الضابط البريطاني «كومودور نابييه» للتوصل إلى صيغة مناسبة لتسوية الأزمة المصرية وَفْقًا لاتفاقية لندن التي عقدتها قوات التحالف تحت قيادة وزير الخارجية الإنجليزي «بالمرستون»، والتي أقرت لمحمد علي حكم مصر والسودان وضمان بقاء حكم البلاد في أسرته العلوية، وتقليم أظافر الجيش ليصبح 18 ألف جندي بعد أن وصل إلى أكثر من 150 ألفًا، وقد أمهلته الدولة أيامًا قليلة لقبولها، ها هي خيوط المؤامرة تضيق على مصر وجيشها وحاكمها، ومحمد علي يستعد للحرب ويحصن الموانئ، ولكن

هيهات أن تستطيع مصر الصمود أمام هذه القوات التي لا طاقة لها بها، إنها تحارب العالم الذي يريد تحجيمها.

ووسط هذه الأجواء المشحونة كانت الاجتماعات المتتالية في مقر إقامة الباشا في الإسكندرية، وكان حوله مجموعة من النصحاء والساسة المخلصين على رأسهم رجل اسمه يوسف بوغوص، وما لا يعرفه الكثير هو أن هذا الرجل، والذي كان وزيرًا للخارجية في حقيقة الأمر، قد اتفق مع «الكومودور نابييه» على قبول شروط معاهدة لندن، وذلك رغم انقضاء المهلة الممنوحة لمحمد علي، ولكن نابييه وقع الاتفاق على غير رغبة قائده العسكري، وقد اضطر وزير الخارجية البريطاني «بالمرستون» إلى أن يقبل الوضع القائم بسبب الضغوط المتزايدة عليه في لندن؛ خاصة أنه لم يكن بالشخصية المحبوبة بين زملائه الوزراء، والذين تحالفوا ضده، فلم يكن قادرًا على مواصلة الحرب دون تكلفة سياسية داخلية، فقبل الرجل بما فعله الكومودور على مضض، وهكذا نجت مصر من أول ضربة في تاريخها الحديث ولكنها لم تنج من الضربة الثانية في عام 1882 عندما احتُلَّت، كما لم تنج من ضربة النكسة في 1967.

هكذا أُبلغ محمد علي بموافقة بالمرستون وحمد ربه على أن مملكته لم تذهب أدراج الريح، ولكن الرجل كان على أتم استعداد للاستمرار في الحرب إن لزم ذلك، ولكنه سرعان ما بدأ يؤقلم حياته على الوضعية الجديدة... فرغم هزيمة مشروعه التوسعي وإقامة الدولة الكبرى التي كان مركزها مصر، فإن

الرجل بواقعيته بدأ يدرك هذا الأمر، وكان ذلك واضحًا خلال جلساته مع كبار رجال الدولة الذين كانوا يحملون له كل الولاء والثقة، وهأنذا أشارك بخيالي في هذه الجلسة المهمة وأرى يوسف بوغوص ورجالات الدولة ملتفين حوله بمزيج من الرهبة والاحترام... إنها المعادلة التي سعى مكيافيلي لشرحها، والتي جسدها محمد علي خلال حكمه في مصر.

ها هو الباشا يلبس عباءته وعمامته ويجلس على الأريكة مربعًا، وحوله رجالات الدولة كما وصفهم المؤرخ القدير والصديق العزيز خالد فهمي في كتابه «كل رجال الباشا»، ها هو محمد علي العظيم أمامي فهو ليس طويلًا كما ظننت، ولكنْ له حضور وكاريزما يصعب عليك وضع التحصينات الدفاعية أمام غزوها لشخصك وأعماقك وكيانك السياسي، إنه يصعب وضع المتاريس أمام قوة شخصيته وذكائه الحاد، والذي يشعرك بضرورة أن تُثبت معتقداتك وأفكارك قبيل الحديث معه وإلا وقعت في سحر فكره وعمق رؤيته وأنت لا تعرف السباحة في عالمه السياسي.

وقفت أتأمل الرجل ذا العينين الضيقتين والفم الصغير واللحية البيضاء التي تتدلى من ذقنه، ولا أُخفي عزيزي القارئ احترامي للثبات والقوة التي يتعامل بها الرجل مع الظرف، وتماسكه بعد أن تقلمت أظافره، وقوة بأسه التي لا تتزحزح قِيدَ أنملة، وعند هذه اللحظة نظر إليَّ الباشا وأشار بأصبعه إليَّ قائلًا بلغة عربية ركيكة: لا أذكرك! ... من تكون؟ ...

وفجأة بدأ الجميع ينظرون إليَّ نظرة استغراب، تحولت تدريجيًّا إلى نظرة

شك، فقلت وأنا أتمالك نفسي حتى لا يظهر عليَّ الاضطراب: أنا يا مولانا شاهد عصر على عظمتكم وحسن تعاملاتكم... لا أحمل سلاحًا سوى عقلي، وما أوتيت من علم حصنني به التاريخ، وثبتني به كتبه؛ فنظر إليَّ الباشا وبدأ يلعب في لحيته البيضاء ويقول بهدوء: لماذا جئت إلى هنا في مجلسنا هذا؟

نظرت إلى من حولي ووضعت ابتسامة لا معنى لها وقلت: جئت لأني من محبي سيرتكم وإنجازاتكم يا مولانا، فلقد عكفت سنوات من عمري أدرس سيرتك وإنجازات نجلك إبراهيم باشا... أنا باحث في التاريخ وقادم من المستقبل؛ أي بعد مائة واثنين وسبعين عامًا من الآن بالتمام والكمال.

نظر الباشا بنصف عين وقال مستفسرًا: هل تقرأ الطالع؟

أنا: نعم تستطيع أن تقول هذا يا مولانا... فأنا أعرف عن سيرتك الكثير.

محمد علي مقاطعًا: وهل تعرف ماذا سيحدث لي؟

أنا: نعم يا مولانا.

محمد علي: كيف سينتهي حكمي؟

انتظرت لحظة فلم أستطع أن أقول له إنه سيفقد صوابه وإن ابنه سيأخذ الحكم منه وهو على قيد الحياة، فقلت له بتردد: حياة مديدة وسيرة حميدة.

نظر إليَّ محمد علي بتشكك وقال لمن حوله: اتركوني والرجل... في الخارج جميعًا.

ثم استدار وقال لي: كيف سأموت؟

أنا: ستموت بعد تسع سنوات من الآن... ولكن كل كتب التاريخ ستقول عنك إنك رجل قوي ومؤسس مصر الحديثة.

أخذ الرجل يستمع دون أن يبدي أية تعليقات وكأنه دخل في غيبوبة فكرية استفاق منها بعد دقيقة وقال: هل تعرف أنك الوحيد في مملكتي، إلى جانب القناصل، الذي يستطيع أن يقول لي ما قلت، وأن يخرج غير مغموم؟! هل تصدق؟!

أنا بهدوء: لقد طلبت الحقيقة فأنا أقولها لك... ولكن هل لي أن أتحدث معك يا مولانا لأتعرف منك على الماضي كما تتعرف أنت مني على المستقبل؟

محمد علي مبتسماً: ماذا تريد أن تعرف؟

أنا: لنبدأ من البداية... تحدث معي عن ماضيك.

قاطعني محمد علي وقال: من الذي سيخلفني... إبراهيم؟

أنا بخبث وهدوء: إذن صحيح الشائعات التي تقول إنك لا تثق فيه؟

محمد علي مبتسماً: أنا بطبيعتي لا أثق في أحد...

عند هذا الحد أدركت أنني أمام شخصية قد تكون تعاني من «البارانويا»، أي أنه دائم الشعور بأن الغير يريد أن ينال منه، ولِمَ لا؟! فحياته تمحورت حول كثير من الأعداء وقليل من الأصدقاء.

قطع الرجل حبل تفكيري وقال بهدوء: ما الذي أوحى لك أنني أشك في ابني؟

أنا: لأن إبراهيم لم يكن ابنك المفضل يا مولانا... أو هكذا تقول كتب التاريخ.

محمد علي ضاحكًا: أولادي هم أولادي وكلهم سواسية.

أنا: إذن لماذا يدور بين العامة أن إبراهيم ليس إلا ابنك بالتبني أو كان ابن زوجتك؟

محمد علي بحزم: احفظ كلامك يا رجل وإلا عذبتك عذاب الشيطان في الآخرة...

أنا: عفوًا مولاي... ولكن على ما أعتقد أن أحد القناصل قال إن هذا الكلام لا أساس له من الصحة؛ لأن القائد إبراهيم له نفس ملامح وجهك.

محمد علي: دعنا من هذا الكلام... هل سيوافق السلطان على نقل الصلاحيات لابني إبراهيم أم أنه سيكون له رأي مخالف؟ فأنا لا أثق في الباب العالي (السلطان العثماني).

أنا: لا تقلق فسيتم نقل السلطة لذريتك بلا مشاكل.

محمد علي: من يحكم مصر في زمنك؟

أنـا: نحن في حالة ثورة فلقد خلعنا رئيسـنا السـابق مبارك وبدأنا نسـعى لتطبيق الديمقراطية.

محمـد علي ضاحـكًا: يا رجـل تذكـرني بعـام 1805 م...؛ ثم اسـتمال على الأريكة وقال بهدوء شـديد: كانت أيامًا صعبـة للغاية يا رجل... كدت أموت في مناسبات عديدة...، حتى ثبتني شعب مصر وانتفض لصالحي ضد المماليك.

أنا: ولكنك تحتقر هذا الشعب!

محمـد عـلي ضاحـكًا: كيف أحتقـر من أتـى بي للحكـم؟!، ولكن لي وجهة نظر في كيفية تحريك هذا الشعب من خلال الشدة والعنف، هل تعرف أن هذا الشـعب يستطيع أن يسـود العالم؟ ثم استعدل نفسه مرة أخرى ومال للأمـام وقـال: هل تعلم... لـو أن القدر أمهلني وكنت قـد بدأت مشروعي هـذا عام 1812 م بدلًا من الدخـول في حرب لا معنى لها في الحجاز، وكنت قد أنجزت الجيش مبكرًا، وطورته بالشـكل المناسب، والله لكان من الممكن أن أعقـد التحالفـات وأسـتولي على الدولـة العثمانية؟ ولكنـي تأخرت عشر سنوات...، عشر سنوات من عمري...

أنـا: لكنك تخلصت من كل القيادات المصرية التي أتت بك، فنفيت عمر مكرم وتخلصت من الأعيان وهمشت الشعب المصري...

محمـد عـلي مقاطعًا: رفقًا يا رجـل... لنتكلم عن كل طـرف على حدة...

أنا حاكم هذه البلاد وليس عمر مكرم ورجاله، وكان من الطبيعي أن أفعل ذلك، فهل كنت سأرفع أصبعي لعمر أو المحروقي والسادات لآخذ منهم الإذن؟! هل أنت معتوه؟!... ثم لا تنس أنهم لهم أهدافهم السياسية أيضًا... طبقة التجار الأغنياء التي استفادت من ضعف المماليك.

أنا: عفوًا ولكني آت من زمن تختار فيه الشعوب حكامها، ولهذا خلعنا في ثورتنا هذه الحاكم.

محمد علي مبتسمًا: أنا لا أحب مثل هذا الكلام في قصري... ولو أن شيئًا سيخلع فسيكون رأسك من على كتفك؛ ثم انفجر ضاحكًا وقال: هل أخفتك؟

أنا: مولانا... لقد أسأت لكل من أحسن إليك.

محمد علي بحزم: لا، أنا أحمي سلطاني يا رجل... إنه الدفاع عن النفس، ثم إن الديمقراطية لقلة من بلاد الغرب، أما نحن هنا فهذه هي الطريقة التي نحكم بها الشعوب، أما الديمقراطية فلنحتكم لها عندما نصل إليها في الزمن المناسب، فلا تحكم عليَّ بزمنك يا رجل.

وقفت أتفكر فيما قاله الرجل وقلت له بهدوء: ولكنك لست مصريًا حتى تحكم مصر؟

محمد علي يطلق ضحكة قوية للغاية ويقول: هل أتحدث لرجل فرنسي أو إنجليزي لا سمح الله؟ الباشا من مواليد باريس؟

أنا مبتسماً: لا؛ السودان في عام 1967م.

محمد علي: من كان يحكم مصر قبلي؟... رجل تركي لا ناقة له ولا جمل في مصر، وكان الشعب يدعو له ولسيده من المنابر وهو لا يدري عن شئونهم شيئًا، ولا المصريون يدرون عن الخليفة العثماني شيئًا، إنه خليفة بمؤسسة لا قيمة لها في هذا العصر، وهذا ما أردت أن أتخلص منه...

أنا: ولكنك لست مصريًّا؟

محمد علي: وهل كان نابليون فرنسيًّا؟... هل كانت كاترينا الكبرى أعظم قياصرة روسيا من روسيا؟ لا؛ لقد كانت ألمانية... فلماذا تعاقبني بما ليس لي يد فيه؟!...

أنا: ولكن..

محمد علي مقاطعًا: على الأقل في كل هؤلاء، فأنا من جاء به الشعب، فلو كنت ديمقراطيًّا يا رجل، فالديمقراطية البُدَائية هي التي أتت بي... فلتفخر بشعبك؛ لأنه كان أول من يختار حاكمه في العالم العربي، ولأفخر أنا بما فعلته في مصر من نهضة.

أدركت أن الرجل قوي الحجة ولا أستطيع مجاراته طويلًا في هذا المجال، فرأيت أن أُغير الموضوع سريعًا، فقلت له: لنتحدث عن مذبحة القلعة.

محمد علي بابتسامة باهتة تخفي عدم ارتياح: ضرورة يا رجل... ضرورة..

أنا: لماذا يعد هذا النوع من القتل ضرورة؟

محمد علي: انظر إلى مصر فلقد ابتلاها الله بطبقة المماليك التي كانت تحكم البلاد فعليًا نيابة عن السلطان مقابل دفع الضرائب، فعملوا على تقوية أنفسهم على اعتبارهم طبقة أرستقراطية كما هي في فرنسا وإنجلترا، وهم ليسوا أهلًا لها.

أنا: لا تقل لي هذا يا مولانا... فأنت خلقت نظامًا أشد بأسًا على المصريين من نظام المماليك!

محمد علي بحدة وعصبية: كيف تقول هذا يا جاهل؟! أنا صنعت دولة يا عديم النظر، أيها الجاهل سأسحقك.

أنا: قد لا أكون مؤسس مصر الحديثة ولكن عندي من العلم والمكانة بحيث يقدرني من يفهمون في زمني.

محمد علي بحدة: هل تقصد أنني قاصر الفهم؟

أنا: لقد قال فيك بالمرستون: «إنك رجل همجي».

محمد علي: وماذا تعرف أنت عن بالمرستون؟! إنه شخصية حقيرة للغاية وغير محبوبة في بلاده، وتكفي همجيته في التعامل مع النساء، واللاتي يهربن من المكان الذي يوجد فيه، إنه من العجيب أن يجد امرأة تتزوجه منذ أشهر قليلة.

أنا: ولو.. فبالمرستون...

محمد علي مقاطعًا: أنا أسست مصر، أما بالمرستون فقد ورث منصبًا...ثم استطرد بقوة قائلًا: لقد عملت لقوة الدولة، أنا صنعت دولة من العدم...

أنا مقاطعًا: طمعًا لبقاء حكمك؟

محمد علي ضاحكًا: وماذا في ذلك؟... انظر كيف كانت مصر في 1805م وأين هي في 1840م، لقد صنعت في 35 سنة دولة تنافس الدول الأخرى كما لم ينافسها أحد خارج القارة الأوربية منذ معارك الدولة العثمانية... فكيف تقول هذا؟ إنك تحكم عليَّ بمعايير لا طاقة لي بها، فلقد حاول المماليك قتلي مرارًا وتكرارًا ووقفوا حجر عثرة في كل خطوة.

أنا مقاطعًا: إلى الحد الذي تقتلهم ببرود في القلعة في مذبحة لم يرو لنا التاريخ مثيلًا لها؟

محمد علي: كيف تتخلصون من منافسيكم في مصر الحديثة؟

نظرت إلى الرجل نظرة ذهول فلقد سألني سؤالًا صعبًا، فقلت له وهو ينظر إليَّ بدهاء: عبد الناصر قتل وسجن الإخوان المسلمين، السادات قام بما سمي بثورة التصحيح في 1971 التي أبعدَ بمقتضاها أعداءَه، أما حسني مبارك فقد سجن وعزل منافسيه خاصة من ذوي الميول الدينية.

محمد علي مستفسرًا: من هؤلاء الإخوان الذين تتحدث عنهم يا رجل؟

أنا: هم جماعة دعوية أسست حزبًا سياسيًّا واستطاعت بعد خلافات ممتدة

مـع حكام البلاد أن تنجح في الانتخابـات البرلمانية في البلاد عام 2012، ثم ينجح مرشحها في رئاسة الجمهورية.

محمد علي ضاحكًا: هل يحكم مصر خليفة جديد؟ لا أفهم.

أنا مبتسمًا: لا يا مولانا... هم جماعة دعوية لها مبادئ سياسية وَفْقًا لمنظور إسلامي... وتسعى لسدة الحكم من خلال الديمقراطية.

محمد علي: من الواضح أن قياداتكم التي توالت على البلاد لم تستطع أن تتعلم من خبرتي... فالرعية تضل عن الراعي عندما يفقد الراعي مشروعـه، فلابـد أن يـكون لكل حاكـم مشروعـه القوي والقومـي... وإلا قالوا لك الخليفـة والخلافـة، تقول لهم الدولة يقولون لك الخلافة... أما أنا فحسـمت الأمر تمامًا، فقد جئت باختيار الشعب ووضعت نصب عيني مشروع الدولة المصرية الحديثة.

أنا بهدوء: ولكن المصري لم يستفد من مشروعك يا مولانا؟

محمـد علي منزعجًا: لو قويـت الدولة قوي المواطن، الآن لهم جيش ولهم اقتصاد قوي، ولهم دولة يفخرون بها بين الدول.

أنا: ولكن الفلاح فقير... تجره بالسخرة إلى الجندية!

محمد علي مستغربًا: ألا يوجد عندكم جندية؟

أنا: نعم ولكننا لا نسوقهم كالماعز!

محمـد علي: طبعًا لأنني عودت المـصري على الجندية... علمته من خلالها الوطنية والقومية بعد أن كان ينظر إلى مصر على أنها ولاية عثمانية أما الآن في زمنـك فهو ينظر إليها على أنها دولة مسـتقلة، وأنا من وضع لبناتها الأولى... سـواء معنويًّا أو عسكريًّا أو اقتصاديًّا أو ثقافيًّا، أنت لا تفهم... هذا الشعب فقد اتصاله بالدولة منذ عصر صلاح الدين على أحسن تقدير... هل تفهم؟! أنـا خلقـت الدولة مرة أخرى وربطـت الأسر بها من خـلال الجندية... ألا تفهم يا رجل؟!

أنا: ولكنك فعلت ذلك لأنك تحب نفسك وأسرتك؟

محمـد عـلي ضاحكًا بسـخرية: أنت سـاذج... فهل فعل نابليـون ما فعله لفرنسـا لأنه أحب فرنسـا؟!... وما الديمقراطية في فرنسـا إلا محاولة لدعم الذات عند الساسـة... لا تقـل ما لا تعلم، إنها النفـس البشرية واضحة، ثم إن تاريخنا منذ الخلافة الراشـدة حتى الآن يدور حول هذا الفلك، ألم يورث معاويـة الحكم لابنـه؟! ألم يورث أبو العباس الحكم لأخيـه؟! ألم يورث ابن طولـون الحكم لابنه؟! ألم..؟! هل أسـتكمل؟!... أنـت تعاقبني بما تعزر به من سبقني! نحن في 1840م.. هل تفهم؟

أنا: إن ما صنعت إنما هو...

ضحـك محمد علي وقاطعني قائلًا: أنا صنعـت دولة مصر التي أصبحت موطنـي أنـا وأولادي، وقد خـبرني القناصل والرحالة ورجـال التاريخ بهذا

الأمر... هذه الدولة لم تجد من يقويها مثلي منذ قرون ممتدة، ثم تتهمني أني أفعل ذلك لنفسي... ثم ضحك وقال: «نعم أفعل هذا لنفسي... وأنا فخور بذلك».

أنا: إن صديقي خالد فهمي يرى فيك أنك رجل بربري وعنيف ولا شفقة في قلبك وأنك وثبت على حكم مصر وكأنها إقطاعية وأنت لا تحترم شعبها...

ضحك محمد علي كثيرًا وقال لي: الدول تُبنى بالدم والعرق والأرواح... ما عرفت عن دولة قامت إلا وكانت هذه التضحيات أركانها... لو أردت أن تكوِّن لنفسك دولة تفصيل فاذهب إلى ترزي السياسة، وإن أردت أن تعرف السياسة فتعال أعلمك أصولها.

أنا: قص عليَّ قصة نيقولا ترك عندما قرأ لك كتاب الأمير لميكيافيلي، والذي كان قد كتبه في شكل نصائح ليُعلم إحدى الشخصيات الإيطالية كيفية الوصول إلى الحكم والإبقاء عليه.

محمد علي ضاحكًا: فعلًا.. جاء لي الرجل يقرأ من كتاب هذا الميكيافيلي ويقول إنك لابد أن تكون كالثعلب والأسد وكلام فارغ من هذا القبيل...؛ ثم انفجر ضاحكًا وقال: قلت له دعك من هذا الكلام يا رجل... فإن عندي من الحيل ما يفوق هذا الكلام الفارغ بكثير... فإن مؤسسية الذكاء والحكمة في السياسة لا يمكن صياغتها في كتب... إنها الخبرة والموهبة.

ضحكت وقلت له: أريد التحدث عن كيفية قيامك بالتخلص من منافسيك لتصل إلى حكم مصر.

محمد علي مبتسماً: إنها توليفة من الحظ والفكر والقدرات...

أنا: لا تُدخل الحظ في المعادلة.

محمد علي مستنكرًا: كيف يا رجل؟!... أنت بلا حظ لا تساوي كثيرًا في عالم السياسة...

أنا: أعرف ما تقصد فأنت ترمي على الألفي بك.

محمد علي: بكل تأكيد... لقد كان المملوكي الألفي عميل الإنجليز، وكان قاب قوسين أو أدنى من تولي الحكم، وحقيقة الأمر أنني ما كنت بقادر على التصدي له، فقواته كانت تفوق قواتي وكان الإنجليز يدعمونه، ولكنه مات قبل المعركة الفاصلة بيننا، وهذا لحسن الحظ.

أنا: هل مات بالإسهال والديزونتاريا قبيل المعركة بساعات أم أن أصابع الحظ الخفية تشير إلى أيدي مولانا؟

محمد علي ضاحكًا: العمر واحد والرب واحد، ولا أحد يعيش أكثر من عمره... ألست من المؤمنين بالله سبحانه؟!

أنا: ولكنك لم تجب عن سؤالي...

محمد علي ضاحكًا: أليست «الأعمار بيدي الله» إجابة؟! ثم إنه مات من الإسهال والنزيف...

أنا: هل ارتعدت وأنت ترى المماليك يذبحون في مذبحة القلعة؟

محمد علي في تغير مزاجي واضح نحو الأسوأ: نعم تأثرت لأن عندي مشاعر وأنا بشر مثلي مثلك...

أنا: وهل قاطعتك زوجتك بعد المذبحة لأنك إنسان غليظ القلب؟

محمد علي بحزم: تمالك نفسك.... رحمها الله كانت امرأة عظيمة.

أنا: لنتحدث عن إنجلترا... لماذا بادرتك كل هذا العداء؟

محمد علي: الإنجليز لهم مصالح في مصر... لعبوا على الألفي ثم حاولوا استمالة مماليك آخرين... هم لا يرغبون في أن تكون مصر قوية، أعطيك مثالًا... لقد حاولوا بكل القوة أن يفرضوا علينا تطبيق اتفاقية التجارة الحرة «بالتا ليماني» والتي كان الهدف منها فتح الأسواق المصرية للمنتجات البريطانية ولكني رفضت، ثم نظر مهمومًا وقال: وغالبًا ما سنقبل بها على الفور.

أنا: اتفاقية تجارة حرة؟ الأ..

محمد علي مقاطعًا: تمهل يا رجل... هذا كان مجرد مثال...لقد أعلنوا الحرب عليَّ لأن جيوشي كانت قرب الأستانة، هل تصدق أنهم فرضوا على السلطان ألا يتحدث معي، ويقولون إن أي اتفاق لابد أن يكون من خلالهم... ده حظ سيئ... كيف هذا؟

أنا: هل هذا لأنك كنت مسيطرًا على البلاط العثماني؟

محمد علي مبتسمًا: كل سياسي لازم يكون له ناسه في كل مكان.. هو أنت مش عارف كده يا رجل؟.. وكل رجال السلطان في إسطنبول كانوا تبعي بشكل أو بآخر، ولكن تدخلهم خرَّب الحياة عليَّ... فاضطررت إلى أن أعيد إليهم الأسطول والشام، ده عملية صعبة قوي قوي...

أنا: ولكن كانت هناك مؤشرات على ضرب مشروعك؟

محمد علي: صحيح... لقد منعوني عام 1838م من إعلان الاستقلال.... لقد كنت على وشك الاستقلال بمصر في هذا الوقت... ولو تحقق ذلك لكان الأمر قد انتهى... ولكنهم حاربوني لأنهم يريدون الإبقاء على السلطان العثماني، وما مثَّله لهم من أهمية ولكن بالأخص الإنجليز ما كانوا ليسمحوا بأن يسيطر على مصر رجل قوي يضايقهم في تجارتهم وطريقهم مع الهند... علمًا بأنني سعيت منذ البداية لأكون حليفهم دون جدوى.

أنا: إنك تكره السلطان العثماني...

محمد علي: إنك لم تر ما رأيت في مصر عند قدومي إليها وأنا جزء من الأورطة الألبانية... لقد كانت مصر بلدًا متخلفًا تمام التخلف... المماليك واثبين على صدور أبناء الشعب، والأعيان هم طبقة من المستفيدين، والدولة العثمانية فوقهم في أوقات وأوقات أخرى الحالة صعبة للغاية لأن المماليك يتحكمون في مصائر العباد... ثم يقول لي البعض اليوم إن الحياة كان يمكن لها أن تتحسن! كيف بالله عليك؟!... البلد خرب... حالة من الفوضى بعد

خروج الحملة الفرنسية... البلد مرتع للجواسيس، إشي رجالة فرنسا، وإشي رجالة إنجلترا، والباب العالي تايه في الوسط، والمماليك منقسمين... إلخ.

أنا: ولهذا قضيت على كل خصومك؟

محمد علي: لكي أبدأ صح... هذه هي الطريقة الوحيدة والمثلى... يعني إنت متخيل إنه كان في أمل من البرديسي بك؟ إنت اتجننت؟ ولو حكم الألفي مصر لأصبحت ولاية إنجليزية...

أنا ببعض أمارات الحزن على وجهي: لقد أصبحت كذلك يا مولانا سنة 1882م.

محمد علي منتفضًا: لقد قلت هذا للجميع، قلت لإبراهيم ويوسف بوغوص ولاظوغلي... هاتهم كلهم اسألهم... يا ناس أنا واضح زي الشمس... الناس ده عايزه تدمر البلد ده... الله يخرب بيوتهم... ده مش بس بالمرستون.. لا... واضح انها الدولة كلها...

أنا: تمهل يا مولانا... كيف بدأت المؤامرة عليك؟

محمد علي مهمومًا ينظر نظرة إلى أعلى ويضع يده على لحيته ويقول: لقد كانت البداية منذ معركة نوارين البحرية، والتي لم يكن لي فيها لا ناقة ولا جمل... أنا لا هدف لي في الثورة اليونانية... أنا مالي ومال هذه الثورة... ده أرض تبعدني عنها كيلو مترات كبيرة من البحر، وانا مش دولة بحْرية، ولكن لعنة الله على السلطان العثماني فقد دفعني دفعًا لهذه المصيبة.

أنا: ولكنك دخلت بإرادتك؟

محمد علي بنظرة استخفاف: ما من شيء بإرادة المرء، أن تقود مركبًا والموج والريح يأتيان من ناحية، فأنت تتخذ قرارك بالتحرك نحو الناحية الأخرى، وهكذا... هل تعلم أنه لم يكن لي أي أطماع في هذه المنطقة... هدخل بيدي في جحر تعابين أوروبا؟!... مش كده.... كنت مضطرًا، والسلطان غبي وعنيد.

أنا: ماذا كان شعورك وأنت تسمع أن الأسطول المصري غرق في نوارين؟

محمد علي بحزن: آه لو كان الأسطول معي اليوم... والله لتحسنت شروط معاهدة لندن، والتي قبلتها على مضض يا رجل... ولكن طبعًا الأسطول انكسر وانكسر معه قلبي...، ثم ضحك ضحكًا هستيريًا وقال: ولكن عقلي ظل سليمًا ويقظًا.

أنا مبتسمًا: واضح تمام الوضوح.

محمد علي مبتسمًا: كان عليَّ أن أكمل المشوار... هذه ضربة ولكنها ليست موتة... لقد استمررتُ وقويت الجيش مرة أخرى، ولكن الأسطول لم يكن على نفس قوته مرة أخرى، لهذا عندما استسلم الأسطول العثماني لي فإن أوروبا أصرت على أن أعيده للدولة العثمانية...

أنا: فرنسا... أريدك أن تحدثني عن فرنسا.

محمد علي: فرنسا كانت الحليف الأمثل لي، فالإنجليز حاولوا معهم وهمه عاملين زي الست الحلوة قوي، متعززين على الجميع لأن ذراعهم طايلة وأسطولهم قوي ولهم مصالح ضدي... فكان الحل الوحيد هو فرنسا... وهي كانت على أتم الاستعداد لمساعدتي بالفنيين والمدربين والمثقفين.. إلخ... هي دولة قوية ولكن مكسورة بعد الحروب النابليونية... بالمناسبة إنت عارف إني انا ونابليون من مواليد سنة واحدة؟

أنا بدعابة: سنة صعبة على البشرية.

محمد علي مبتسماً: أراك راغبًا في قطع أصبع رجلك اليمنى يا رجل...

أنا بلطف شديد: فرنسا..

محمد علي: هي القوة التي كانت مستعدة للدعم وفتح تحالف معي... فلقد أرسلت لي الناس المحترمين الذين ساعدوا على نشر الحركة الإصلاحية في البلاد، زي سليمان باشا وكلوت بك وغيرهما...

أنا مقاطعًا: ولكن مشروعك التحديثي كان هدفه الجيش وليس المواطن؟

محمد علي بضيق شديد: كل شوية تقول المواطن المواطن المواطن... هو المواطن كان فين من أي حكم في مصر من أيام عمرو بن العاص أو حتى بعده... هو مكنش على فكر أي حد يا رجل... واليوم عايزني أركز عليه...،

الدولـة لمـا تكون قوية المواطن هيقوى... كفاية مؤسسـة الجيش واللي عملته للمواطـن من خدمات ومشروعات، أهو عـلى الأقل معندوش مجاعات ولا عنـده حاجـة.. ولما تقارن قارن بالظروف التي أنـا فيها وليس بالظروف بعد مائة وخمسين عامًا، وكفانا حديثًا في هذه النقطة العابثة.

وعنـد هذا الحد أيقنت أن الرجـل أصبح يتحدث بتوتر ملحوظ، ورأيت ألا أزيد من اسـتفزازه، فنظرت إليه بابتسـامة وشـاهدته يعيد جلسته بشكل مختلـف ويشرب الشيشـة، وقد بدأ يهـدأ بعض الشيء، فقلت لـه بهدوء: لقد طلبت منك فرنسـا أن تحتـل الجزائر نيابة عنه لتـؤدب الحاكم هناك، ولكنك ترددت ثم رفضت، لماذا؟

محمد علـي مبتسـمًا: هذه هي الأسئلة التي أحبها يا رجل، دعنا نتحدث بالسياسـة وليس بالمشاعر... ثم استدار لخادمه وقال له: أحضر للرجل شايًا جميلًا؛ ثم نظر الباشـا إلى خريطة أمامه وأشـار للشـام وقال: أنا مصلحتي في الشرق وليس الغرب... مصر عينها لازم تكون على الشـــرق دائمًا كأولوية أولى، ثم وضع أصبعه على الشـام وقال: هذا هو المكان.... أما أن أذهب إلى الغرب فهذه خيبة سياسـية، إنه صندوق من الرمال يمتد من برقة وطرابلس ثم شريط ساحلي في الجزائر لا قيمة كبيرة له، فلماذا لا أزرع في مصر وأتوسع فيهـا بـدلًا مـن الذهـاب إلى هنـاك؟!... الثمـن باهـظ والأعـداء في الشـام متربصون.

أنا: ولكنـك لا تـزال تحكم الحجـاز وهي منطقـة غير ذي زرع؟!

محمد علي مبتسماً: هل أتوسم فيك السذاجة أم الذكاء؟! أن تحكم المنطقة التي بها بيت الله الحرام فإن هذا يمنحك قيمة سياسية وسط الإمارات العربية والإسلامية، كما لا تنس أنني عندما دخلتها لمحاربة الدولة الوهابية فإنني لم أكن أهدف من وراء ذلك إلا التخلص من بقايا المرتزقة من الجيش التي أتت إلى مصر لطرد الحملة الفرنسية، منهم الأورطة الألبانية التي جئت فيها، وأيضًا المغاربة والدلاة إلخ...

أنا: لنتحدث عن حكمك في مصر... لماذا كنت قاسيًا في أحكامك؟

محمد علي مبتسماً: يا رجل إن هذا الشعب فيه قوة كبيرة وملكة عالية، ولكنك لو تركته لحاله فسوف يدخلك في مآسٍ لا حدود لها... وأول شيء هو عدم الإنجاز، ولكنك لو وفرت له القيادة السليمة فإنك تستطيع أن تُخرج منه الكثير... ولكن الأمر يحتاج إلى حزم وقسوة.

أنا: ولكن مرة أخرى أسلوب التجنيد كان قاسيًا...

محمد علي بخبث ودهاء: هل زرت الأهرامات؟

أنا: نعم...

محمد علي: ألم تسأل نفسك يا رجل كيف أن حاكماً سخر شعبه لبناء مدفن له بهذا الحجم حتى يلقى ربه؟! على الأقل فأنا أسخر الشعب لرفعة بلاده... أعرف ما ستقول وهو أن هذا لمجدي الشخصي... وليكن يا رجل.. ليكن... مجدي ومجد مصر اتفقا فلا تجعلهما يختلفان.

أنا: الآن وبعد أن ضاع حلم الدولة الكبرى كيف ستقضي أيام حكمك؟

محمد علي بابتسامة تنم عن ذكاء شديد: لقد جئت لمصر ومعي بضعة ملابس، أما وأني سأخرج منها حاكمًا عليها وعلى السودان، وذريتي من بعدي فهذا أمر ليس بقليل... ثم قال بخبث شديد تعكسه الابتسامة: أنا لا أراك حاكمًا على شيء يا رجل؟

أنا ضاحكًا: في زمني يا مولانا لا نحكم بالذرية... فنحن «حاربنا التوريث» ولا مكان له في حياتنا.

محمد علي مقاطعًا: ولكن مكانه موجود في حياتنا نحن في زمننا هذا؟

أنا: لماذا؟

محمد علي: لأنه الوسيلة الوحيدة المضمونة لانتقال السلطة يا رجل... ألم تر ماذا حدث لمصر عبر تاريخها؟، كل سنة أو اثنتين يسرق خيراتها وينهبها والٍ عثماني تعينه إسطنبول... ثم تعالَ هنا... هذه لأول مرة منذ الحكم العثماني يبقى فيها خير مصر لهذا البلد، فمن قبل كان يذهب في بطون رجال الأستانة والمماليك.

أنا: ولكنه نظام الخلافة يا مولانا؟

محمد علي: أقول لك سرًّا... ولو لمْ أكن لأصبح خليفة للمسلمين لكسرت

هذه المؤسسة عديمة الجدوى... خاصة بالنسبة لمصر... فماذا يقدم الخليفة التركي لمصر؟! لا شيء... هل تعرف؟! ... لا شيء .. إنه يأخذ فقط!

أنا: ولهذا أردت أن تكون خليفة في إطار ما أسماه القناصل الغربيون «مشروع إعادة الإحياء» أو Rejuvenation، بحيث تستولي أنت على الخلافة فتصبح خليفة المسلمين.

محمد علي مبتسمًا: ألا تراني أصلح لأكون خليفة؟

أنا: ولكنك لا تقرأ ولا تكتب إلا بصعوبة؟

محمد علي ضاحكًا: ولكني أستطيع أن أحكم... فلقد صنعت من بلدك قوة دولية أعتقد أنها قد تكون رقم 8 أو 10 على مستوى العالم... صنعت من الفلاح المستكين جنديًا، ولو أن الشعب المصري ثار على حاكمه فهذا لأني وضعت له إطار الدولة التي غيرت من دوره وقيمته.

أنا: ولكنك لم تقصد فعل ذلك؟

محمد علي مبتسمًا: جزء من مشكلة هذا الشعب أنه عاطفي... وما بالك بأهدافي من وراء ما صنعت؟!... أمر لا يعنيك في شيء، انظر فقط إلى النتائج.

أنا: لماذا فشل المشروع؟

محمد علي: لأنه لا أحد يريد لهذه الدولة أن تكون قوية.... ليس من

مصلحة أحد، حتى فرنسا التي وقفت بجواري أثناء الأزمة الأخيرة تخلت عني في مرحلة معينة وانضمت لباقي التحالف الدولي... إنها المصالح يا عزيزي... إنها المصالح.

أنا: فكرة البعثات التي قمت بها.. لماذا؟

محمد علي مبتسمًا: أنا تعليمي محدود للغاية، أكاد أكون أميًّا... ولكن اسمع مني... لا تنهض دولة على العسكر وحده، العسكرية ليست بديلًا لفكر وتطور وتنوير، فلقد قُرئ لي أن أوروبا كان لديها حركات فكرية مختلفة لا أذكر أسماءَها قبل أن تكون أوروبا التي نعرفها اليوم، كما أنها مليئة بالفكر والتعليم والتيارات الثقافية، ولماذا لا تكون مصر مثلها؟... لماذا لا أرسل أولاد البلد إلى هناك ليتعلموا ثم يأتوا لي بالمزيد، فيكون حكمي مبنيًّا على قاعدة قوية؛ الاقتصاد إلى جانب الثقافة إلى جانب الجيش، ثالوث القوة الحقيقية لمصر العظيمة؟

أنا: ألست تخاف من تعليم الرعية هذا الفكر؟

محمد علي ضاحكًا: لا تقلق عليَّ يا رجل... فالشعب المصري لو اجتمع على بعضه فلن يستطيع أن يكون مثل داهية كالألفي أو البرديسي أو عتاة البلاد من محبي الظلام والتخلف الذين قضيت عليهم واحدًا بعد الآخر... أما أن تدفع بلادك نحو الجهل حتى تحكمهم فهذا دليل على أنك غير قادر على السيطرة... أما أنا فقادر، إذن فأنا لا أخاف.

استدار محمد علي ونظر إليَّ نظرة مباشرة في الوجه وقال: أكون أميًّا لا أجيد القراءة والكتابة كما ينبغي ولكني أقرأ الشخصية.

أنا: نعم لقد قلت ذلك من قبل لأحد القناصل الغربيين... إنك تقرأ وجوه الناس؟

محمد علي مبتسمًا: ولا أخطئ..... أنا أستطيع أن أقرأ وجهك وأعرف شخصيتك الآن بعد هذا الحديث.

أنا: دعنا من هذا... فلنقل..

محمد علي مقاطعًا: تعتز بنفسك، تُستفز بسهولة كما أنك لا تصلح لأن تحكم مصر على الإطلاق، فمثلك يضع أخلاقياته ومشاعره قبل مصالحه...؛ ثم انفجر ضاحكًا: احذر من الأمي غير الطويل، ولا تثق في كتبك وأنت تتعامل مع الأصل، كما أنك مهزوز بعض الشيء، عندما أقول لك شيئًا بانفعال تهتز، وعندما أهدئ من صوتي تتمادى... إنك نمط من البشر أعرفهم جيدًا وأعرف كيف أتعامل معهم...

أدركت عند هذا الحد معنى كلمة الذكاء؛ فالرجل له مقومات لم أرها من قبل، إنه شعلة من الذكاء التي لا طاقة لأحد به...، وقد بدأت بالفعل أشعر بالإرهاق الفكري وأنا أمام هذا الداهية، فقلت له بهدوء: أعتقد أن مصر الآن تعيش على المشروع النهضوي الذي بنيته أنت بفكرك وبعرق ودم وأرواح الفلاحين من أبناء هذه الدولة، هل تعرف ذلك؟

محمد علي وابتسامة الخبث تعود إليه: طبعًا أستطيع أن أخمن ذلك... ولكن هل تعرف أنت لماذا اخترت مصر بالذات؟ ولماذا حاربت حتى حصلت على حكمها؟

أنا: قل لي...

محمد علي: المرء لا يحتاج أن يكون عبقريًا... فهي الدولة الوحيدة التي لها مقومات الدولة القوية، والتي يمكن أن تكون قاعدة لدولة أكبر، شوف الخريطة عاملة إيه وازاي... ، ثم ضرب الرجل بيده على الخريطة التي أمامنا وقال: تجارة فيه... ناس تعمل منهم جيش فيه... زراعة وخير كتير فيه... سواحل وموقع فيه... جو لطيف فيه...

نظر إليَّ وابتسم ووضع أصبعه على رأسه وقال: لو مخ فيه... تبقى ده أقوى بلد في المنطقة وحولها... زي ما هي دلوقتي... لازم يكون فيه مخ ورؤية... وبالمناسبة مش محتاج لحد متعلم قوي علشان يقول لك هذا... ولو انت نصف متعلم ومعرفتش الكلام ده تبقى جاهل... ثم انفجر ضاحكًا...

أنا: ولكن الثمن كان باهظًا!

محمد علي بدهاء وابتسامة: قل لي الإنجاز أقل لك الثمن.... أنت بحاجة لدروس في السياسة يا رجل... وقد خلصت منك الآن، فلقد عرفت كل ما أحتاج معرفته منك، ومن ثم فلا تضيع وقتي أكثر من هذا....

أنا في محاولة لعدم إنهاء الحديث: سوف تفقد صوابك بعد سنوات قليلة من الآن ويعين ابنك إبراهيم مكانك؟

محمد علي بانفعال: إذن يكون قد تحقق حلمي فجئت لمصر بذرية صالحة تحميها، ولا تنس أن إبراهيم باشا هو أبو الجندية المصرية وأساس محبة المصريين من الفلاحين... اغرب عن وجهي... فلا حاجة لي بك.

أنا في محاولة يائسة لجذب انتباهه: ماذا أقول للمصريين اليوم؟... ما رسالتك إليهم في عالم الحرية والديمقراطية اللتين يسعون لتحقيقهما؟

محمد علي مبتسماً وهو يهم بالوقوف إيذانًا بنهاية اللقاء وحاشيته تجرني بعيدًا عنه: قل لهم أن يختاروا السياسي لا الأخلاقي، أن يعظِّموا شأنهم بالوحدة والتوحد وليس بالفرقة والاقتتال، إن الله منَّ عليهم بخيرات مصر، فأمِّروا عليكم من له عينان وقوة وعقل.

الفهرس



نبذة عن المؤلف:

- الدكتور محمد البدري نائب مساعد وزير الخارجية.
- خدم في سفارات مصر في أنقرة وبروكسل والوفد المصري لدى الأمم المتحدة في نيويورك.
- رأس المكتب الإعلامي التابع للسفارة في لندن.
- كان عضوًا في فريق التفاوض المصري لإبرام اتفاقية المشاركة المصرية الأوروبية عام 1996.
- عمل مستشارًا بمكتب وزير الخارجية أحمد ماهر السيد عام 2003.
- أستاذ غير متفرغ للعلاقات الدولية والتاريخ الحديث بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- صاحب الباب الأسبوعي «من التاريخ» بصحيفة الشرق الأوسط اللندنية.
- يُعِدُّ ويُقدِّم البرنامج التاريخي «التاريخ يتحدث».
- له من الإصدارات «المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي».



دار نهضة مصر
للنشر

حوارات الموتى

لقاءات خيالية مع شخصيات تاريخية

إيمانًا بأهمية التاريخ البشري لمستقبل هذا العالم، وانطلاقًا من قاعدة أن الحوادث التاريخية تكرر نفسها عبر مراحل الزمن المختلفة، نجح السفير محمد البدري من خلال هذا العمل -في تجربة تاريخية فريدة.. وعبر رحلة عميقة في التاريخ الإنساني - أن يعيد قراءة التاريخ سياسيًّا ونفسيًّا ..ليلتقي عددًا من زعماء رحلوا عن عالمنا من مئات السنين، كاشفًا لنا من خلال محاوراته لهم عن أحداث سياسية خطيرة، وجوانب نفسية عميقة في تلك الشخصيات.

ومن هنا تأتي أهمية هذا العمل الذي لا يعد عملاً تاريخيًّا وحسب يقدم لنا رؤى زعماء وقادة رحلوا عن عالمنا وقد أثَّروا فيه، ولكنه يمنحنا الفرصة بأسلوب مميز وحوار أدبي عميق، للتأمل في تلك الشخصيات وما قامت به، وإسقاط ذلك على واقعنا الحالي.

الناشر



6 221133 345354



www.nahdetmisr.com